البلاغة النبوية

فى

التصوير بالإشارة والحركة الجسمية

د / صلاح أحمد رمضان

مدرس البلاغة والنقد فى الكلية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله حمداً يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه ، والصلاة والسلام على أفصح العرب لساناً ، وأوضحهم بياناً ، وأعذبهم نطقاً ، وأعرفهم بمواقع الخطاب ، وأهداهم إلى طريق الصواب ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

وبعد ....

فإن بيان الرسول ﷺ أشرف نص أدبي ، وخير تراث بشري يستحق الدراسة والبحث ؛ لأنه ذروة الذرى من بلاغة البشر ، ولا يرتفع فوقه في مجال الأدب الرفيع إلا كتاب الله بلاغة ، وفصاحة ، وروعة .

ولا غرو في ذلك " فبلاغة الرسول ﷺ من صنع الله ، وما كان من صنع الله تضيق موازين الإنسان عن وزنه ، وتقصر مقاييسه عن مقياسه ، فنحن لا ندرك كنهه وإنما ندرك أثره ... ذلك أن البلاغة النبوية هي المثل الأعلى للبلاغة العربية ، وإذا كان كلام الله كتاب البيان المعجز ، فإن كلام الرسول ﷺ سنة هذا البيان ،وإذا كان البلاغ صفة كل رسول ، فإن البلاغة صفة محمد وحده "[1].

ثم إن (الإشارة) وجه من وجوه البلاغة ، وضرب من ضروب البيان الخمسة ، ووسيلة من وسائل البيان والإيضاح التي يلجأ إليها البليغ لتأكيد المعاني وترسيخها في ذهن المخاطب .

وقد سلك الرسول ﷺ في بيانه طريق التصوير بالإشارة والحركة ، وشغل ذلك حيزاً كبيراً في بيانه ﷺ بحيث يرقى أن يكون مجالاً خصباً لدراسة بلاغية جادة تكشف عن دور الإشارة وقيمتها ، وتبرز أنواعها ودلالتها البلاغية، وكيف وظفها الرسول ﷺ في مقاماتها الأشكل بها ؟ ! وكيف نهضت بحمل المعاني والأغراض البلاغية نهوضاً حقق الإفادة والإمتاع في آنٍ واحدٍ ؟! وكيف كانت في بيانه ﷺ مقتضى حال يفسد النظم والمعنى دونها ؟ !

وفي هذا السياق تبرز أهمية الموضوع الذي نحن بصدد دراسته ، لاسيما وأني لم أقف على دراسة وافية كاملة لبلاغة الإشارة في البيان النبوي ، بينما نشطت الأقلام ، وتبارت الأفهام ، وتعددت الدراسات المتصلة بجانب (اللفظ) في بيان النبي ﷺ .. ومن ثَمَّ رأيت أن أسهم بدراستي المتواضعة هذه ، وعنوانها : "البلاغة النبوية في التصوير بالإشارة والحركة الجسمية :

---

(١) وحي الرسالة للأستاذ / أحمد حسن الزيات ٣ / ٨١ ، ط/ دار الثقافة ـ بيروت ـ ط. (العاشرة) ، ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م .

من خلال صحيح البخاري"علها تشكل لبنة في هـذا الصـرح العظـيم ، أو تسـد ثُلْمَـةً في جداره .

والدراسة إذ تتخذ (صحيح البخاري) مادة وإطاراً لها ؛ فإنما تتجه إلى كتاب هو أصـح الكتب بعد كتاب الله ، وهذا يكسبها شرفاً وقيمة ، ولا يخفى أن إقامة الدراسة على أصل ثابـت راسخ يشعر الباحث بالثقة واليقين في أنه يقوم بعمل علمي يمكن أن ينتهي إلى نتائج قوية يُدْفع بها في مجال الدرس البلاغي ، فتطمئن إليها النفوس وتعتمد عليها .

أما عن منهج الدراسة ، فهو منهج تحليلي ذوقي ، يرصد مواضـع الإشـارة والحركـة وأنواعها في البيان النبوي الوارد في صحيح البخاري ، ويكشف عن بلاغتها ودورها في الـنظم ، ومدى ارتباطها بمقاماتها ، وكيف أنها تقف على قدم المساواة مع (اللفـظ) في تصـوير المعـاني وإيضاحها ؟ !

وقد اقتضت طبيعة الدراسة أن تُصنَّف في : مقدمة ، وتمهيد ، وفصـلين ، ثم خاتمـة ، وفهارس متنوعة ، ونظرة سريعة في فهرس الموضوعات تغني عن إعادة هذا الإطار الشكلي .

وأخيراً ..إن كان ما بذلته من جهد في هذه الدراسة دون ما يليق بجلال البيان النبـوي وإبداعه ، فحسبي أني أخلصت النية ، وشرفت بهدى النبي ﷺ مدة من الزمان .

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

د/ صلاح أحمد رمضان

التمهيد

ويتضمن المحاور الآتية :

ـــ دلالة الإشارة في اللغة .

ـــ مفهوم الإشارة في التراث البلاغي والنقدي.

أولاً : عند الجاحظ ت ٢٥٥ هـ .

ثانياً : بعد الجاحظ .

ـــ القيمة البلاغية في البيان بالإشارة والحركة .

دلالة الإشارة في اللغة

أصل (الإشارة) من قولهم : شار العسل يشُورُهُ شَوْرَاً وشِيَاراً وشيارةً ومَشَاراً ومَشَارةً : استخرجه من الوَقْبَة واجتَنَاهُ ، واستثاره كشارَهُ ، قال أبو عبيد : شُرْتُ العسل واشتَرْتُهُ : اجتَنَيْتُهُ وأخذته من موضعه [1] وأشرْتُهُ أشيرُهُ إشارةً [2] ،وأضافوا : شار الدابة يشورها : إذا عرضها لتباع [3] ، والمكان الذي تعرض فيه الدواب : مِشْوار [4] ، والشارة عند العرب والشورة : الهيئة واللباس [5] ، جاء في الحديث : " أن رجلاً أتاه وعليه شارة حسنة " . [6]

ونلحظ مما سبق ــ استناداً إلى استعمال العرب ــ أن أصول مادة "إشارة" تدل على معاني عرض الشيء وإظهاره والإيماء إليه ، ولهذا قالوا: رجل حسن الشارة حلو الإشارة ، وفلان صير شير : حسن الصورة والشارة. [7]

وتتطور مادة "شور" التي تحمل في ثناياها معنى إبداء الشيء وإظهاره وعرضه من دلالة ظاهرية بسيطة تستند إلى هيئة الشيء ، إلى دلالة باطنة عميقة تعتمد على ما في غور النفس ، فتعبر عنها وتحكي مضامينها عن طريق الإشارة الحسية .

قال ابن منظور : " وأشار إليه وشَّورَ : أومأ ، يكون ذلك بالكف والعين والحاجب ، أنشد ثعلب :

نُسِرُّ الهَوى إلاَّ إشَارَةَ حَاجِبٍ هُنَاكَ ، وَإلاَّ أَنْ تُشِيرَ الأَصَابِعُ

---

(١) لسان العرب لابن منظور ٧ / ٢٣٣ ، مادة " شور" ط. دار إحياء التراث العربي ــ بيروت ط. ثانية ١٩٩٧ م ، والقاموس المحيط للفيروزآبادي ٢ / ٦٥ ، مادة "شار" ط/ دار الفكر ــ بيروت ــ ١٩٧٨ م .

(٢) كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي ، ٦ / ٢٨٠ ، باب الشين والراء والواو ، تحقيق د / مهدي المخزومي ، د/ إبراهيم السامرائي ــ منشورات مؤسسة الأعلم للمطبوعات ــ بيروت ــ ط. أولى ١٩٨٨ م .

(٣) أساس البلاغة للزمخشري صـ ٣٤٠،مادة "شور" ط/ دار صادر ــ بيروت ــ ١٩٧٩ م.

(٤) مجمل اللغة لابن فارس ١ / ٥١٥ ، تحقيق / زهير عبد المحسن سلطان ، ط/ مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ ط. ثانية ١٩٨٦ م .

(٥) لسان العرب ٧ / ٢٣٣ ، مادة "شور" .

(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٢ / ٥٠٨ ، تحقيق / طه أحمد الزاوي ، ومحمود الطناحي ، ط. / المكتبة العلمية ــ بيروت ــ بدون تاريخ .

(٧) أساس البلاغة للزمخشري صـ ٣٤٠ ، مادة "شور" .

وشوَّر إليه بيده : أي أشار . وفي الحديث : " كان يشيّر في الصلاة "، أي : يومئ باليد والرأس ، أي يأمر وينهي بالإشارة ، ومنه قوله للذي كان يشير بإصبعه في الدعاء : "أَحِّد أَحِّد " ومنه الحديث : " كان إذا أشار بكفه أشار بها كله" ، أراد أن إشاراته كلها مختلفة ، فما كان منها في ذكر التوحيد والتشهد فإنه كان يشير بالمسبحة وحدها ، وما كان في غير ذلك كان يشير بكفه كلها ليكون بين الإشارتين فرق ، ومنه : " إذا تحدث اتصل بها " ، أي وصل حديثه بإشارة تؤكده ، وفي حديث عائشة : " من أشار إلى مؤمن بحديدة يريد قتله وجب دمه"، أي : حل للمقصود بها أن يدفعه عن نفسه ولو قتله . والمشيرة : هي الإصبع التي يقال بها السبابة "[1] .

(١) لسان العرب ٧ / ٢٣٥ ، مادة " شور" .

مفهوم الإشارة في التراث البلاغي والنقدي (*)

أولاً : عند الجاحظ ت ٢٥٥ هـ :

يعد الجاحظ من أوائل البلاغيين الذين عالجوا مفهوم البيان بالإشارة والحركة وهو ـ على تقدمه وسبقه ـ قد حدد مفهوماً واضحاً للإشارة، وحرر ضوابط وحقائق مهمة أصبحت أصولاً في بابها لمن أتي بعده وحتى عصرنا هذا ... بل لا نبالغ عندما نقول إن الجاحظ عالج هذا الضرب من البيان معالجة وافية، مكتملة المعالم ، واضحة الحدود .

فقد عقد الجاحظ في كتابه " البيان والتبيين " باباً وضح فيه مفهوم " البيان " وأنماطه ، وأصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ ، وجعل البيان بـ "الإشارة" أحد الوسائل البيانية للتعبير عن المعاني فقال :

" البيان : اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى ، وهتك الحجاب دون الضمير ، حتى يفضي السامع إلى حقيقته ، ويهجم على محصوله ، كائناً ما كان ذلك البيان ، ومن أي جنس كان الدليل ؛ لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائلَ والسامع إنما هو الفهم والإفهام ، فبأي شيء بلغت الإفهام ، وأوضحت عن المعنى ، فذلك هو البيان في ذلك الموضع ... وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد : أولها: اللفظ ، ثم الإشارة ثم العقد ، ثم الخط، ثم الحال التي تسمى نِصْبةً". (١)

وفي موضع آخر نص الجاحظ صراحة في أن "الإشارة" وجه من وجوه البلاغة فقال ـ نقلاً عن إسحاق بن حسان بن قومه :

" لم يفسر البلاغة تفسير ابن المقفع أحد قط . سُئِلَ ما البلاغة ؟ قال : اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة فمنها ما يكون في السكوت ، ومنها ما يكون في الاستماع ، ومنها ما يكون في الإشارة ومنها ما يكون في الحديث " . (٢)

(*)هدف الدراسة في هذا المحور أن تحرر مفهوم "الإشارة" في التراث البلاغي والنقدي من خلال عرض جهود أبرز العلماء الذين عالجوا هذا الضرب من البيان .. وليس من هدف الدراسة أن تتتبع البيان بالإشارة والحركة في الدرس البلاغي والنقدي من الناحية التاريخية وجهود العلماء في هذا الباب ؛لأن هذا ليس مناط الدراسة ، ولا هي منه بسبيل الآن ، فضلاً عن ترهل البحث العلمي وطوله بما لا حاجة له إذا حشدنا هذه الآراء والجهود ...وإنما هي وقفات سريعة مع أبرز العلماء الذين عالجوا هذا الباب وكان لهم أثر واضح في تحرير مصطلح " الإشارة" وإبراز مفهومه الذي يمكن للدراسة أن تسير على نهجه في الجانب التطبيقي .

(١) البيان والتبيين للجاحظ ١ / ٧٦ ، تحقيق / عبد السلام هارون ، الناشر : مؤسسة الخانجي بالقاهرة (بدون)

(٢) السابق ١ / ٦٤ .

بل إن الجاحظ ــ رحمه الله ــ ذهب إلى أكثر من هذا في بيان دور "الإشارة" وأنها قد تفضل (اللفظ) ،وتتقدم عليه في مقامات بعينها ؛ ذلك أن الإشارة أبعد بلاغاً من الصوت ؛ لأنها تصل حيث لا يصل الصوت ، وتنهض بالمعنى في مقامات يعجز اللفظ عن الوفاء بها .

"وفي الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح مرفق كبير ، ومعونة حاضرة في أمور يسترها بعض الناس عن بعض ويخفونها من الجليس وغير الجليس "[1] ، وذكر أمثلة يدلل بها على ما ذهب إليه منها قول الشاعر :

أَشَارَتْ بِطَرْفِ العَينِ خِيفَةَ أَهْلِهَا ... إِشَارَةَ مَذْعُورٍ وَلَمْ تَتَكَلَّمِ

فَأَيْقَنْتُ أَنَّ الطَّرْفَ قَد قَال مَرْحَبَاً ... وَأَهْلاً وَسَهلاً بِالحَبِيبِ المُتَيَّمِ

وقول الشاعر :

العَينُ تُبْدِي الذِّي فِي نَفْسِ صَاحِبِهَا ... مِنَ الْمَحَبَّةِ أَو بُغْضٍ إِذَا كَانَا

وَالْعَينُ تَنْطِقُ وَالأَفْوَاهُ صَامِتَةٌ ... حَتَّى تَرى مِنْ ضَمِيرِ القَلبِ تِبْيَانَا[2]

ويرى الجاحظ ــ أيضاً ــ أن الإشارة تبلغ مبلغاً أبعد من الصوت ، وأن هذا باب تتقدم فيه الإشارة الصوت ، يضاف إلى ما سبق من الأمور التي يسترها الناس ويخفونها من الجليس وغيره ، حيث تتعين الإشارة ، يقول :

" ومبلغ الإشارة أبعد من مبلغ الصوت ، فهذا أيضاً باب تتقدم فيه الإشارة الصوت ، والصوت هو آلة اللفظ ، وهو الجوهر الذي يقوم به ، وبه يوجد التأليف ولن تكون حركات اللسان لفظاً ولا كلاماً موزوناً ولا منثوراً ؛ إلا بظهور الصوت ولا تكون الحروف كلاماً إلا بالتقطيع والتأليف" . [3]

والمقصود بـ "الإشارة" عند الجاحظ ، معناها اللغوي الذي يتحقق بحركة بعض أعضاء الجسم على وجه معين لأداء معنى معين قُصِدَ إفهامه للرائي ، سواء صاحبت الإشارة اللفظ أم جاءت وحدها . [4]

يقول الجاحظ : " فأما الإشارة فباليد ، وبالرأس ، وبالعين ، وبالحاجب ، والمنكب إذا تباعد الشخصان ، وبالثوب ، وبالسيف ، وقد يتهدد دافع السوط والسيف فيكون ذلك زاجراً رادعاً ويكون وعيداً وتحذيراً "[5] .

---

(١) السابق ١ / ٧٨ .

(٢) البيان والتبيين ١ / ٧٩ .

(٣) السابق ١ / ٧٩ .

(٤) راجع : البلاغة القرآنية في التصوير بالإشارة والحركة الجسمية للدكتور / عبد الله محمد هنداوي ، صـ ٩ ، ط/ مطبعة الأمانة ، ط. أولى ١٩٩٥ م .

(٥) البيان والتبيين ١ / ٧٧ .

ويقول في موضع آخر : " فأما الإشارة فأقرب المفهوم منها : رفع الحواجب، وكسر الأجفان ، ولي الشفاة ، وتحريك الأعناق ، وقبض جلدة الوجه، وأبعدها أن تلوي بثوب على مقطع جبل تجاه عين الناظر " . (١)

ويقرر الجاحظ حقيقة مهمة في هذا الباب ، وهي أن الأصل المعتمد في البيان هو (اللفظ) ، ولكنه يؤكد أن (الإشارة) أقوى الوسائل البيانية التي تكون عوناً للفظ في البيان والإفهام ..."والإشارة واللفظ شريكان، ونعم العون هي له ، ونعم الترجمان هي عنه ، وما أكثر ما تنوب عن اللفظ ، وما تغني عن الخط ....ولولا الإشارة لم يتفاهم الناس معنى خاص الخاص ، ولجهلوا هذا الباب البتة " . (٢)

وحسب الجاحظ ــ وهو المتقدم ــ أن يعالج هذا الباب بهذه النظرة الفاحصة التي تدل على فهم عميق وإدراك واع بنظم الكلام وطرائقه .

ثانيا : بعد الجاحظ :

على الرغم من أن الجاحظ ت ٢٥٥ هـ عالج البيان بالإشارة والحركة معالجة وافية وأبان عن مفهوم (الإشارة) وحدد أركانها ومعالمها ، وفصل القول في ذلك تفصيلاً كاشفاً ؛ إلا أن من أتى بعده من العلماء قد نحا بهذا الباب نحواً مغايراً ، فلم يستفيدوا من الأصول التي وضعها الجاحظ لهذا الضرب من البيان وتحولت دلالة (الإشارة) من معناها الحسي ، إلى الإشارة اللفظية التي تفهم دلالتها من (اللفظ) ؛مما أدى إلى خلط وتداخل بين الإشارة والألوان البلاغية فضلاً عن الاضطراب والتناقض بين القاعدة والمثال عند دراسة هؤلاء العلماء لباب الإشارة .

وسوف نبرز ــ بإذن الله تعالى ــ في الصفحات القادمة أبرز العلماء الذين تحدثوا عن الإشارة بعد الجاحظ وجهودهم في هذا السياق :

مع قدامة بن جعفر ت ٣٢٧ هـ :

تحدث قدامة بن جعفر عن الإشارة في معرض بيانه للأطر التي يتم من خلالها ائتلاف اللفظ والمعنى ، وجعل الإشارة نوعاً منها ، وعرفها بقوله : " الإشارة : أن يكون اللفظ القليل مشتملاً على معان كثيرة ، بإيماء إليها، أو لمحة تدل عليها " . (٣)

وإذا انتقلنا إلى الشواهد التي نظر بها لمفهوم الإشارة ندرك بجلاء مدى التباين والانفصام بين القاعدة والمثال ، فالشواهد التي استشهد بها تخلو من الحركة والإيماء وجميع أشكال الإشارة ، والدلالة فيها مستقاة من اللفظ ، وليست من (الإيماء واللمحة) كما ذكر في التعريف ...وبهذا

---

(١) الحيوان للجاحظ ١ / ٤٨ ،تحقيق / عبد السلام هارون ، ط/ مصطفى الحلبي بمصر (بدون تاريخ)

(٢)البيان والتبيين ١ / ٧٨ .

(٣) نقد الشعر لقدامة بن جعفر ، صـ ١٥٥ ، د/ محمد عبد المنعم خفاجي ، ط/ دار الكتب العلمية ــ بيروت (بدون تاريخ) .

يكون قدامة قد تحول بالإشارة من معناها اللغوي الحسي ، إلى الإشارة اللفظية التي تستقي دلالتها من اللفظ .

ومن أمثلته قول امرئ القيس :

عَلَى هَيْكلٍ يُعْطِيكَ قَبلَ سُؤَالِهِ أَفَانِينَ جَرىٍّ غَيرِ كَزٍّ وَلاَ وَانِي

يقول : " فقد جمع بقوله " أفانين جرى" على ما لو عُدَّ لكان كثيراً". (١)

ومن أمثلته ــ أيضاً ــ قول امرئ القيس :

فَإِنْ تَهْلَكْ شَنُوءة أَو تُبدَّل فَسيري إِنَّ فِي غَسَّانَ خَالاَ

لعزِّهم عَزَزْتُ وَإِنْ بَذَلُوا فَذُلِّهم أَنالك مَا أَنَا لاَ

يقول : فبينة هذا الشعر على أن ألفاظه مع قصرها قد أشير بها إلى معان طوال فمن ذلك " تهلك أو تبدل : ومنه قوله " إن في غسان خالا"، ومنه ما تحته معان كثيرة وشرح ، وهو قوله " أنالك ما أنالا " . (٢)

وعند التأمل نجد أن هذه الأمثلة وغيرها مما ذكر قد خلت من الإشارة، ونلحظ أن قدامة عدل عن الإشارة بمعناها الحسي إلى دلالة " اللفظ" ، والأمثلة التي مثل بها تدور بين إيجاز القصر والكناية ..وهذا خلط واضح بين دلالة الإشارة ، وبين بعض الألوان البلاغية .

مع ابن رشيق القيرواني ت ٤٥٦ هـ :

أفرد ابن رشيق القيرواني في كتابه "العمدة" باباً للحديث عن دلالة الإشارة، والذي ينعم النظر في معالجته لهذا الباب يلحظ تبايناً واضطراباً في تحريره لمفهوم الإشارة ، كما يلحظ خلطه الواضح بين مفهوم الإشارة وبعض الفنون البلاغية (٣) ..وقد جاء حديث ابن رشيق عن الإشارة في شقين :

الشق الأول : جعل ابن رشيق كل ما يفهم من دلالة اللفظ أو التعبير الأسلوبي داخلاً في مسمى الإشارة ، سواء جاء التعبير في صورة تشبيه أو استفهام ، أو تعريض ، أو كناية ، أو تمثيل ، أو لحن ، أو غير ذلك علماً بأن القاسم المشترك بين هذه الألوان البلاغية هو (الإيجاز) .

وبهذا الفهم لدلالة الإشارة يكون ابن رشيق قد وسَّع دائرة الإشارة ، حيث جعلها تتداخل مع كثير من الفنون البلاغية ، ويكون ابن رشيق ــ وهو المهم ــ قد تحول بالإشارة من معناها الحسي إلى الإشارة اللفظية التي تفهم دلالتها من اللفظ المنطوق .

---

(١) نقد الشعر صـ ١٥٥ .

(٢) السابق صـ ١٥٥ .

(٣) راجع : العمدة في محاسن الشعراء وآدابه ونقده لابن رشيق ١ / ٣٠٢ – ٣١٣ ، تحقيق / محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط/ دار الجيل ــ بيروت ــ بدون تاريخ .

يقول ابن رشيق مشيراً إلى بعض أنواع الإشارة : " ومما جاء من الإشارة على معنى التشبيه قول الراجز يصف لبناً ممذوقاً :

جاءوا بمذق هل رأيت الذئب قط

فإنما أشار إلى تشبيه لونه ؛ لأن الماء غلب عليه فصار كلون الذئب .

ومن أنواع الإشارة : التفخيم والإيماء ؛ فأما التفخيم فكقول الله تعالى : ﴿ الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ (١) .

...وأما الإيماء فكقول الله ــ عز وجل ــ : ﴿غَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ (٢)

... ومن أنواعها : التعريض ، كقول كعب بن زهير لرسول الله ﷺ:

فِي فِتْيَةٍ مِن قُرَيْشٍ قَالَ قَائِلُهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ لَمَّا أَسْلَمُوا زُولُوا

فعرَّض بعمر بن الخطاب ، وقيل : بأبي بكر ــ رضي الله عنهما ــ وقيل : برسول الله ﷺ تعريض مدح " . (٣)

الشق الثاني : الإشارة بمفهومها اللغوي الحسي ، وهو الإشارة أو الحركة ببعض أعضاء الجسم على وجه معين لأداء معنى معين ، وهو المفهوم الذي قرره الجاحظ وانتهى إليه كما وضحنا قبل ذلك .

وهذا الفهم لدلالة الإشارة نستخلصه من دفاع ابن رشيق عن بلاغة الإشارة رداً على من زعم أنها حشو في الكلام ، مستدلين بقول أبي نواس :

قَالَ إِبْرَاهِيم بِالْمَا ل (كذا) غَرباً وشَرقاً

حيث زعموا أن قوله (كذا) حشو ، وقصور عن اللفظ الدال على الإشارة ...وقد رد عليهم ابن رشيق بقوله :

" ولم يأت بها أبو نواس حشواً ، ولكن شطارة وعبثاً بالكلام ، وإن شئت قلت : بياناً وتثقيفاً كما قال رسول الله ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص : " وكيف بك إذا بقيت في حثالة من الناس ، قد مرحت عهودهم وأمانتهم ، واختلفوا فكانوا هكذا ..وشبَّك بين أصابع يديه " ،ولا أحد أفصح من رسول الله ﷺ ولا أبعد كلاماً منه من الحشو والكلف "(٤) .

---

(١) الآيتان ١ ، ٢ سورة القارعة

(٢) من الآية ٧٨ سورة الغاشية .

(٣) العمدة لابن رشيق ١ / ٣٠٣ .

(٤) العمدة ١ / ٣٠٩ .

كما نستخلص هذا الفهم لدلالة الإشارة ــ أيضاً ــ من الأمثلة التي مثل بها ابن رشيق للتدليل على أن البيان بالإشارة والحركة يكون ــ أحياناً ــ في مقامات لا ينهض بها اللفظ ...ومن ذلك : " أن معاوية أقام الخطباء لمبايعة ولده "يزيد" فقام رجل من ذي الكلاع فقال :

هَذا أَمير الْمُؤمنين .... وأشار بيده إلى معاوية

فَإِنَّا مَاتَ فَهَذا ....وأشار إلى يزيد

فَمَنْ أَبَى فَهَذا .... وأشار إلى السيف .

ثم قال :

مُعَاوِيَة الْخَليفَــة لا نُمَــارِي ... فَإِنْ يَهْلك فَسَائِسُــنا يَزِيــدُ

فَمَنْ غَلَب الشَّقَاءُ عَلَيه جَهْلاً ... تحكم في مَفَارقه الحَديــد".[1]

ومن الأمثلة التي تؤكد ذلك ــ أيضاً ــ ما ذكره ابن رشيق ، قال : " وقد جاء أبو نواس بإشارات أخر لم تجر العادة بمثلها ، وذلك أن الأمين بن زبيدة قال له مرة : هل تصنع شعراً لا قافية لــه ؟ قال : نعم ، وصنع من فوره ارتجالاً :

ولقد قلت للمليحــة قــولي ... من بعيد لمن يحبك (إشــارة قبلــه)

فأشارت بمعصــم ثم قالــت ... من بعيد خلاف قولي (إشــارة لا لا)

فتنفســت ســاعة ثم إني ... قلت للبغل عند ذلك (إشارة امشي)

فتعجب جميع من حضر المجلس من اهتدائه ، وحسن تأتيه ، وأعطاه الأمين صلة شريفة " .[2]

فهذه الأمثلة واضحة الدلالة في أن ابن رشيق عاد بالإشارة إلى مفهومها الحسي اللغوي الذي يبرز قيمتها ودورها في نظم الكلام .

مع ابن أبي الإصبع المصري ت ٦٥٤ هـ :

يمكن القول أن ابن أبي الإصبع المصري ناقل متأثر بسابقيه في معالجته لدلالة الإشــارة ؛ لكن الجديد الذي يحسب له أنه دلّل على بلاغة الرسول ﷺ في البيان بالإشارة ، وأن إشاراته ﷺ كانت سهلة واضحة يدركها المخاطب بجلاء ، كما أنها قادرة على حمل المعنى المــراد في مواضــع يعجز عنها اللفظ .

فسهولة الإشارة ، وتوظيفها في المقامات الملائمة ، وقدرتها على حمل المعنى المراد : هــي أصول وقواعد جديدة لاحظها ابن أبي الإصبع المصري في بيان الرسول ﷺ واشــترطها لصــحة الإشارة ..وهذه ــ لا شك ــ إضافة شريفة تمثل لبنة من جهود العلماء في تحرير دلالة الإشــارة وبلاغتها .

---

(١) العمدة ١ / ٣١٠ .

(٢) السابق ١ / ٣١٠ .

يقول ابن أبي الإصبع : "ولابد في الإشارة من اعتبار صحة الدلالة ، وحسن البيان في الاختصار ؛لأن المشير بيده إن لم يفهم المشار إليه معناه بأسهل ما يكون ؛ فإشارته معدودة من العبث ، ولهذا قال ابن أبي عالة في وصف رسول الله ﷺ:

" أنه كان يشير بكف كلها ، وإذا تعجب قلبها ، وإذا حدَّث اتصل بها فضرب براحته اليمنى باطن إبهامه اليسرى " فوصفه ببلاغة اليد كما وصفه ببلاغة اللسان ، يعني أنه يشير بيده في الموضع الذي تكون فيه الإشارة أولى من العبارة ، وهذا حذق بمواضع المخاطبات .

وقوله : (كلها) ، أي : يفهم بها المخاطب كل ما أراده بسهولة ؛ فإن الإشارة ببعض الكف تصعب ، وبكل الكف تسهل ، فأعلمنا هذا الوصاف أنه ﷺ كان سهل الإشارة كما كان سهل العبارة " . (١)

تعقيب :

من خلال عرض جهود العلماء السابقين في معالجتهم لمفهوم الإشارة وبلاغتها يمكن استخلاص أهم النقاط التالية :

١- أن مفهوم الإشارة المرتضى هو : " الإشارة أو الحركة ببعض أعضاء الجسم على وجه معين لأداء معنى معين قصد إفهامه للمشار إليه ، سواء صاحبت الإشارة اللفظ أم جاءت مستقلة وحدها " .. وهذا المفهوم يتوافق مع المعنى اللغوي للإشارة ، وهو ما يسمى بالإشارة الحسية ، أما الإشارة المعنوية التي تفهم دلالتها من الألوان البلاغية كالتشبيه ، أو الكناية ، أو الاستفهام ، أو غير ذلك ؛ فلا تدخل في دراستنا لما يترتب عليها من الخلط والتداخل بين الإشارة والفنون البلاغية .

٢- أن الإشارة ضرب من ضروب البيان ، وأحد الوسائل التي يلجأ إليها البليغ للتعبير عن معنى خاص لا ينهض به اللفظ في مقامات بعينها، فهي تقف على قدم المساواة مع اللفظ من حيث الدلالة والوفاء بحق المعنى المراد .

٣- أنه يشترط لصحة الإشارة : سهولتها ، وتوظيفها في المقامات الملائمة ، وقدرتها على الوفاء بالمعنى المراد ؛ ذلك أن المشير إن لم يفهم المشار إليه المعنى المراد فإشارته معدودة من العبث .

---

(١) تحرير التحبير لابن أبي الإصبع المصري صـ ٢٠٠ ، ٢٠١ ، تحقيق الدكتور / حفني شرف ، ط/ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ١٩٩٥ م . وراجع : خزانة الأدب لابن حجة الحموي ٢ / ٢٥٨ ، شرح / عصام شعيب ، ط/ دار مكتبة الهلال ـ بيروت ـ بدون تاريخ .

القيمة البلاغية في البيان بالإشارة والحركة

لا يماري ذو نَهيَّة أن الإشارة تمثل وسيلة من وسائل البيان والإيضاح في اللغة وأنها من أصناف الدلالات على المعاني كما ذكر الجاحظ في قوله: " وجميع أصناف الدلالات من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد ، أولها : اللفظ ، ثم الإشارة ، ثم العقد ،ثم الخط ،ثم الحال التي تسمى نصْبة".(١)

وقد عدها بعض العلماء وجهاً من وجوه البلاغة ، حيث نقل الجاحظ عن إسحاق بن حسان بن قومه أنه قال : " لم يفسر البلاغة تفسير ابن المقفع أحد قط . سئل ما البلاغة ؟ قال : اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة فمنها ما يكون في السكوت ، ومنها ما يكون في الاستماع ، ومنها ما يكون في الإشارة ومنها ما يكون في الحديث " .(٢)

وتبرز قيمة البيان بالإشارة والحركة في مقامات يعجز اللفظ عن ا لنهوض بها والوفاء بمعانيها ، كما في البيان للبعيد ؛ حيث إن الإشارة أبعد بلاغاً من الصوت ، وكما في بيان الخائف ، وفي الأمور التي يسترها بعض الناس عن بعض ويخفونها من الجليس وغير الجليس ، كما في قول الشاعر مثلاً :

أَشَارَتْ بِطَرْفِ العَيْنِ خِيفَةَ أَهْلِهَا ... إِشَارَةَ مَذْعُورٍ وَلَمْ تَتَكَلَّمِ

فَأَيْقَنْتُ أَنَّ الطَّرْفَ قَدْ قَالَ مَرْحَباً ... وَأَهلاً وَسهلاً بِالحَبِيبِ الْمُتَيَّمِ

فهذا مقام يتعين فيه الإشارة ، ولا يستطيع اللفظ أن ينهض فيه بالمعنى المراد كما نهضت الإشارة . " فالإشارة من غرائب الشعر وملحه ، وبلاغة عجيبة تدل على بُعْد المرمى ، وفرط المقدرة ، وليس يأتي بها إلا الشاعر المبرز،والحاذق الماهر".(٣)

ومن بلاغة التعبير بالإشارة والحركة ، " أنها لغة إنسانية يستطيع أن يتفاهم بها أناس من بلاد مختلفة لا يعرف بعضهم لغة بعض ، كما يتفاهم بها البكم فيما بينهم ، ومع الناطقين أيضاً ، وهي إذا كانت في محلها كانت معينة على الفهم ، ملفتة للنظر ، طاردة الشرود ، مشركة في المتابعة أكثر من حاسة ، فالناظر يرى بالإشارة ، ويسمع بالعبارة ، ويذكر كل منهما بالأخرى " .(٤)

---

(١) البيان والتبيين ١ / ٧٦ .

(٢) السابق ١ / ٦٤ .

(٣) العمدة لابن رشيق ١ / ٣٠٢ .

(٤) التصوير الفني في الحديث النبوي ، د/ محمد لطفي الصباغ صـ ٢٥ ، ط/ المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط. أولى ١٩٨٨ م .

والحديث النبوي الشريف قد سلك طريق التصوير بالإشارة والحركة، فكان لإشاراته وحركاته ﷺ أثر كبير في إجادة الأداء ، وقد وقعت موقعها من النظم فجاءت معينة على الفهم ، ملفتة للنظر ، منبهة للغافل ، مساعدة على الحفظ والتذكر[1].

"فللإشارات والحركات والأفعال دلالة عميقة في إيضاح المعاني وترسيخها في النفس ، ودارس الحديث النبوي الشريف يرى من ذلك الشيء الكثير الذي يدل على اهتمامه البالغ ﷺ بوسائل الإيضاح في تعليم أمته ، وشغل الحاسة مع العقل في لباقة تحول التلميذ بكل ما فيه إلى المعلم الحريص على سيطرته في درسه ، وقد يكون الفعل قبل العبارة لافتاً ومشوقاً ، فإذا تبعه البيان ازداد الغرض تقرراً لا يسهل في العادة نسيانه ، فإذا ظن به النسيان كذبت الظن المناسبة الخفيفة التي سرعان ما تبرزه جلياً كيوم تلقيه "[2].

وقد أدرك الصحابة ــ رضوان الله عليهم ــ دور الإشارة والحركة في بيانه ﷺ ؛ فحرصوا على نقل إشاراته وحركاته وأحواله كما هي دون تصرف فيها ؛ لإيمانهم أن هذه الوسائل البيانية لها دور في بناء المعنى ، وتكوين الدلالات ، لاسيما وأن بيانه ﷺ يتعلق بالعقيدة والشريعة وما يتصل بها حلاً أو حرمة ، ترغيباً أو ترهيباً ، كراهة أو استحباباً وغير ذلك.

ولعل أبرز ما يدلل على قيمة الإشارة وبلاغتها أنه يؤخذ بها في الأحكام الفقهية المتعلقة بالحدود والقصاص ..من ذلك ما رواه البخاري " عَنْ أَنَسٍ – رضى الله عنه – أَنَّ يَهُودِيًّا رَضَّ رَأْسَ جَارِيَةٍ بَيْنَ حَجَرَيْنِ ، فَقِيلَ لَهَا مَنْ فَعَلَ بِكِ ، أَفُلاَنٌ أَوْ فُلاَنٌ حَتَّى سُمِّيَ الْيَهُودِيُّ ، فَأَوْمَأَتْ بِرَأْسِهَا ، فَجِيءَ بِهِ، فَلَمْ يَزَلْ حَتَّى اعْتَرَفَ ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ فَرُضَّ رَأْسُهُ بِالْحِجَارَةِ "[3].

بل قد يؤخذ بها في أمر العقيدة الذي هو أصل الديانة وما يترتب عليه من أحكام .. من ذلك أن الرسول ﷺ قضى بعتق أمةٍ سوداء لمجرد إسلامها بالإشارة ، فقد ذكر القرطبي معلقاً على

---

(١) راجع : البلاغة القرآنية في التصوير بالإشارة والحركة الجسمية صـ ٣٢– ٣٣ ، والتصوير الفني في الحديث صـ ٥٢٥ .

(٢) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية ، د/ عز الدين علي السيد صـ ٧٧ ، ط/ دار اقرأ ، ط. أولى ١٩٨٤ م .

(٣) صحيح البخاري ، ح / ٢٧٤٦ ، كتاب : الوصايا ، باب : إذا أومأ المريض برأسه إشارة جازت ج ٢ صـ ٤٠٦ ، ط/ دار الحديث بالقاهرة ، ط. أولى ٢٠٠٠ م .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً ﴾ (١) : " في هذه الآية دليل على أن الإشارة تنزل منزلة الكلام وذلك موجود في كثير من السنة . وآكد الإشارات ما حكم به النبي ﷺ من أمر السوداء حين قال لها : " وأين الله ؟ " فأشارت برأسها إلى السماء ، فقال : " اعتقها فإنها مؤمنة " فأجاز الإسلام بالإشارة الذي هو أصل الديانة الذي يحرز الدم ، والمال ، وتستحق به الجنة ، وينجي من النار ، وحكم بإيمانها كما يحكم بنطق من يقول ذلك ، فيجب أن تكون الإشارة عاملة في سائر الديانة ، وهو قول عامة الفقهاء " . (٢)

ثم إن البيان بالإشارة والحركة في البيان النبوي يحقق أغراضاً بلاغية، ويؤدي دوراً في حمل المعنى المراد ما كان لأي وسيلة أخرى أن تحققها وأن تنهض بها ومن هذه المعاني والأغراض البلاغية :

١- بيان أهمية الأمر المشار إليه وخطورته ..ومن ذلك ما رواه البخاري "عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال : "إِنَّ اللَّهَ لاَ يُعَذِّبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ ، وَلاَ بِحُزْنِ الْقَلْبِ ، وَلَكِنْ يُعَذِّبُ بِهَذَا - وَأَشَارَ إِلَى لِسَانِهِ - أَوْ يَرْحَمُ وَإِنَّ الْمَيِّتَ يُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ » . (٣)

ففي الإشارة إلى لسانه ﷺ دون التلفظ به دلالة على أهمية العضو المشار إليه وخطورته ، لما يترتب عليه من عذاب المرء أو رحمته .

٢- تأكيد المعنى المراد في نفوس المخاطبين عن طريق تمثيل القول بالفعل ..ومن ذلك ما رواه البخاري " عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال : " إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً » . وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ " . (٤)

وهذه الإشارة للدلالة على القوة وتأكيد التماسك الذي ينتج عنه اتحاد المؤمنين واجتماع كلمتهم وتعاونهم وتعاطفهم فيما بينهم ، مما يؤدي إلى تقوية بعضهم لبعض . (٥)

٣- التعليم بالحركة المشاهدة ..ومن ذلك ما رواه البخاري " عَنْ سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبْزَى عَنْ أَبِيهِ قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَقَالَ إِنِّي أَجْنَبْتُ فَلَمْ أُصِبِ الْمَاءَ . فَقَالَ عَمَّارُ بْنُ

(١) من الآية ٤١ ، سورة آل عمران .
(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٤ / ٨١ ، دار الكتب المصرية ط. الثانية ١٩٥٤ م .
(٣) صحيح البخاري ح / ١٣٠٤ ، كتاب الجنائز ، باب : البكاء عند المريض ١ / ٥٥٣ .
(٤) صحيح البخاري ح / ٤٨١ ، كتاب : الصلاة ، باب : تشبيك الأصابع في المسجد وغيره ١ / ٢٤١
(٥) راجع : البلاغة القرآنية في التصوير بالإشارة والحركة الجسمية صـ ٣٤ .

يَاسِرٍ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَمَا تَذْكُرُ أَنَّا كُنَّا فِي سَفَرٍ أَنَا وَأَنْتَ فَأَمَّا أَنْتَ فَلَمْ تُصَلِّ ، وَأَمَّا أَنَا فَتَمَعَّكْتُ فَصَلَّيْتُ ، فَذَكَرْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ« إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ هَكَذَا » . فَضَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ بِكَفَّيْهِ الأَرْضَ ، وَنَفَخَ فِيهِمَا ثُمَّ مَسَحَ بِهِمَا وَجْهَهُ وَكَفَّيْهِ " . (١)

ففي حركته وفعله ﷺ تعليم للسائل كيفية التيمم ، والتعبير بالحركة والفعل في هذا المقام أبلغ من اللفظ ؛لأن السائل بعد أن رأى وشاهد الرسول ﷺ يؤدي عملياً طريقة التيمم ؛ فإنه ـــ دون شك ـــ يتمكن في صورته ومخيلته طريقة التيمم فلا ينساها بعد ذلك أبداً ، وهذا بخلاف ما لو قال له ﷺ: إنما كان يكفيك أن تضرب بكفيك الأرض ، ثم تنفخ فيهما، ثم تمسح وجهك وكفيك وهذا ـــ لعمري ـــ منهج تعليمي ومقام خاص أدرك فيه البليغ ﷺ بذوقه أن الإشارة والحركة ابلغ من اللفظ .

٤- بيان شدة القرب ..ومن ذلك ما رواه البخاري " عَنْ سَهْلٍ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ« أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا » . وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى ، وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا شَيْئًا ". (٢)

... ومنه قوله ﷺ: " بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَذِهِ مِنْ هَذِهِ أَوْ كَهَاتَيْنِ»، وَقَرَنَ بَيْنَ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى ". (٣) فإن الدلالة على شدة القرب ، نهضت به الإشارة بالسبابة والوسطى على أتم وجه وأوفاه .

وحسبنا هذا الحديث الموجز عن بلاغة البيان بالإشارة والحركة وقيمته ، وستبرز الدراسة ـــ بإذن الله ـــ مظاهر هذه البلاغة والأهمية بصورة أشمل وأوسع عند تحليلنا وتطبيقنا على الأحاديث النبوية محل الدراسة .

(١) صحيح البخاري ح / ٣٣ ، كتاب : التيمم ، باب : المتيم هل ينفخ فيهما ١ / ١٧٥
(٢) صحيح البخاري ح / ٥٣٠٤ ، كتاب : الطلاق ، باب : اللعان ٣ / ٦٨٤ .
(٣) السابق ح / ٥٣٠١ ، كتاب : الطلاق ، باب : اللعان ٣ / ٦٨٣

الفصل الأول
التصوير بالإشارة والحركة الجسمية
دراسة في صحيح البخاري

ويشمل المباحث الآتية :

المبحث الأول : الإشارة بالأصابع

المبحث الثاني : الإشارة باليد .

المبحث الثالث : الإشارة بالرأس .

المبحث الرابع : حركة الجسد .

توطئة :

انتهينا في صدر الدراسة إلى أن مفهوم الإشارة المرتضى هو : "الإشارة أو الحركة ببعض أعضاء الجسم على وجه معين لأداء معنى معين قصد إفهامه للمشار إليه ، سواء صاحبت الإشارة اللفظ أم جاءت مستقلة وحدها " .

والرسول ﷺ قد سلك طريق التصوير بالإشارة والحركة في بيانه " وقد بلغ الأداء النبوي قمة بلاغته حينما اعتمد على المواءمة الدلالية بين العبارة والمواقف الحركية والإشارية التي تصاحب التعبير اللغوي ، كل ذلك بدقة متناهية يمكن القول معها أن الحديث النبوي الشريف في دلالاته بالإشارة اللامحة البسيطة قد كشف عن طاقة بيانية رائعة وقدرة متدفقة على عمل صور في العقل والعين محملة بطاقاتٍ دلالية واسعة الثراء لا يستطيع تأديتها اللفظ وحده "[1] .

وتحاول الدراسة ــ بإذن الله تعالى ــ أن تبرز في هذا الفصل أنواع الإشارات ودلالاتها البلاغية ، وكيف وظفها الرسول ﷺ في مقاماتها الأشكل بها ، وكيف نهضت بحمل المعنى المراد نهوضاً حقق الإفادة والإمتاع في آنٍ واحد، وكيف كانت في بيانه ﷺ مقتضى حال يفسد لنظم والمعنى دونها .

(١) العبارة والإشارة د/ محمد العبد صـ ١٨٥ ، ط/ دار الفكر العربي بالقاهرة ١٩٩٥ م .

المبحث الأول

الإشارة بالأصابع

أدرك الرسول ﷺ بحسه المرهف مرونة الأصابع وتنوع استخدامها فوظفها في مقامات معينة للنهوض بحمل المعاني والأغراض البلاغية .. والمتتبع لأحاديثه ﷺ ــ مستقرئاً ــ يقع منها على جم غفير ، نذكر منها ــ على سبيل التمثيل لا الحصر ــ مجموعة صنفناها باعتبار استخدام الأصابع، وهي :

١-الإشارة بالسبابة والوسطى :

روى البخاري " عَنْ سَهْلٍ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِى الْجَنَّةِ هَكَذَا » . وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى ، وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا شَيْئاً " (١)

في هذا القبس النبوي الرفيع يرغب الرسول ﷺ في كفالة اليتيم والاهتمام بأموره ومصالحه ، ويبين ﷺ منزلة كافل اليتيم في الآخرة وهي الرفقة والقرب منه ﷺ ..فما أعظم هذا الثواب ! وما أعلى وأسمى هذه الدرجة !

وقد صاغ الرسول ﷺ هذا المعنى عن طريق التصوير بالإشارة (وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا شَيْئاً) ؛ لما تحققه الإشارة في هذا المقام من دلالات بلاغية أهمها :

التشبيه : حيث شبه قرب كافل اليتيم من الرسول ﷺ في الجنة بقرب السبابة والوسطى ... ونلحظ أن الإشارة هنا قامت مقام (المشبه به) وكأن الرسول ﷺ قال : أنا وكافل اليتيم في الجنة من الرفقة والقرب كما بين السبابة والوسطى .

وبهذا التشبيه الذي نهضت بحمله الإشارة يكون الرسول ﷺ قد حقق الإيضاح والبيان ؛ لجمعه بين القول والفعل ، وبين الإدراك السمعي والبصري فاستخدام الرسول ﷺ للإشارة في هذا المقام يرسخ المعنى ويمكن المراد ــ وهو بيان القرب والرفقة في الجنة ــ في نفس المخاطب ؛ ذلك " أن المشاهدة تؤثر في النفوس مع العلم بصدق الخبر ... يبين ذلك أنه لو كان الرجل مثلاً على طرف نهر في وقت مخاطبة صاحبه وإخباره له بأنه لا يحصل من سعيه على شيء ، فأدخل يده في الماء ، وقال : انظر هل حصل في كفي من الماء شيء ؟ فكذلك أنت في أمرك ،وكان لذلك ضرب من التأثير زائد على القول والنطق بذلك دون الفعل " .(٢)

أضف إلى ذلك أن الإشارة بالسبابة والوسطى تصور بدقة بالغة عن طريق الحس المشاهد بيان مقدار القرب من الرسول ﷺ في الجنة .."ذلك أن الوصف كما يحتاج إلى إقامة الحجة على

---

(١) صحيح البخاري ح / ٥٣٠٤ ، كتاب : الطلاق ، باب : اللعان ٣ / ٦٨٤ .

(٢) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني صـ ١٢٦ ، ١٢٧ ، تحقيق الشيخ / محمود شاكر، ط/ دار المدني بجدة ، ط. أولى ١٩٩١ م .

صحة وجوده في نفسه ،وزيادة التثبيت والتقرير في ذاته وأصله ، فقد يحتاج إلى بيان المقدار فيه ، ووضع قياس من غيره يكشف عن حده ومبلغه في القوة والضعف ، والزيادة والنقصان " . (١)

كما أن الإشارة ــ هنا ــ حققت معنى سامياً وهو ترغيب المسلمين واستنهاض هممهم في كفالة الأيتام ، والعناية بهم ، والقيام بمصالحهم ، حتى لا يبقى في الأمة يتيم يعاني الفقد والضياع .. ذلك أن الجزاء عظيم ، فهو القرب والرفقة والصحبة لرسول الله ﷺ في الجنة .

وإنما فرج الرسول ﷺ بين إصبعيه السبابة والوسطى ؛ للإشارة إلى التفاوت في الدرجة بين درجة الأنبياء وآحاد الأمة في الجنة ، فالقرب موجود ومتحقق لكن هناك درجات بين الأنبياء والناس . (٢)

ومن الدلالات البلاغية التي حققتها الإشارة في هذا المقام : (الإيجاز)، وهذا جلي عندما نوازن بين حديث الرسول ﷺ :(أنا وكافل اليتيم هكذا، وأشار بالسبابة والوسطى) وبين قوله ــ مثلاً ــ : (أنا وكافل اليتيم في الجنة ــ من القرب والمجاورة ــ كما بين السبابة والوسطى) . ويستخدم الرسول ﷺ الإشارة بإصبعيه (السبابة والوسطى) لتصوير معنى القرب في موضع آخر رواه البخاري عن " سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَذِهِ مِنْ هَذِهِ أَوْ كَهَاتَيْنِ » . وَقَرَنَ بَيْنَ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى". (٣)

إن الرسول ﷺ يريد أن يقرر ويؤكد أن بعثته قريبة من قيام الساعة فيسلك طريق التصوير بالإشارة بدلاً من اللفظ ، ويقرن كلامه الشفوي بإشارته المحسوسة المشاهدة ، فيجمع بين السبابة والوسطى ، وبصنيعه ﷺ ــ هذا ــ ملك أفئدة المستمعين حين خاطب العيون والقلوب ؛ فأثار انتباههم ، وأيقظ مشاعرهم ، واستنهض هممهم حتى يحرصوا على العمل والتقوى ، فالساعة قريبة جداً من بعثة الرسول ﷺ كما بين السبابة والوسطى .

وربما سأل سائل فقال : قد انقضى من بعثته ﷺ إلى يومنا هذا ما يزيد على ألف وأربعمائة سنة ، فكيف تكون مقاربة الساعة مع بعثته ؟

أجاب عن مثل هذا العيني نقلاً عن الخطابي أنه أراد أن ما بين بعثته ﷺ وبين الساعة من مستقبل الزمان بالقياس إلى ما مضى منه مقدار فضل الوسطى على السبابة ، ولو كان النبي أراد غير هذا المعنى لكان قيام الساعة مع بعثته في زمان واحد ...أو أن هذا كناية عن شدة القرب جداً. (٤)

ويعتمد الرسول ﷺ بالإشارة عن طريق إصبعيه الوسطى والسبابة في مقام التشريع لبيان قدر ما يجوز استعماله للرجال من الحرير ، وذلك فيما رواه البخاري : "عَنْ أَبِي عُثْمَانَ ، قَالَ :

---

(١) السابق صـ ١٢٤ ، ١٢٥ .

(٢) راجع : عمدة القاري ٢٠ / ٢٩٤ ، ط/ دار إحياء التراث العربي ــ بيروت (بدون) .

(٣) صحيح البخاري ح / ٥٣٠١ ، كتاب الطلاق ، باب اللعان ٣ / ٦٨٣ .

(٤) راجع : عمدة القاري ٢٠ / ٢٩٣ .

كَتَبَ إِلَيْنَا عُمَرُ وَنَحْنُ بِأَذْرَبِيجَانَ : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنْ لُبْسِ الْحَرِيرِ إِلاَّ هَكَذَا ، وَصَفَّ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ إِصْبَعَيْهِ . وَرَفَعَ زُهَيْرٌ الْوُسْطَى وَالسَّبَّابَةَ ". (١)

إن الإشارة ــ في هذا المقام ــ نهضت بحمل المعنى المراد ، وصورت بدقة متناهية القدر الجائز من الحرير للرجال ، في صورة محسوسة مشاهدة حتى لا تترك مجالاً للاجتهاد والاختلاف ، لا سيما وأن الأمر يتعلق بجانب من جوانب التشريع وما يتعلق به حلاً وحرمة .

والعلة في تحريم لبس الحرير للرجال هو الإسراف ، وقيل الخيلاء ، وقيل التشبه بالنساء ، وقيل : التشبه بالكفار ، ويدل عليه قوله ﷺ : " هو لهم في الدنيا ولنا في الآخرة " . (٢)

٢- تشبيك الأصابع :

وظف الرسول ﷺ ــ في بلاغة تجف دونها الأقلام ــ تشبيك الأصابع وسيلة إشارية يؤكد بها المعنى في نفوس المخاطبين ، ويعزز فيها القول بالفعل المحسوس المشاهد ، فتتعانق البلاغة الإشارية مع البلاغة القولية في سهولة ويسر يعيها السامع والرائي ، ويتمكن المعنى في نفوسهم خير تمكن .

ومن ذلك ما رواه البخاري : "عَنْ أَبِي مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً »، وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ". (٣)

فقد مثل الرسول ﷺ حال المؤمن مع أخيه المؤمن عندما يتعاون معه ويشاركه أحزانه وأفراحه ، وآلامه وآماله ؛ بحال البنيان مع البنيان في تماسكه وصلابته ومقاومته للأحداث ..فهذا تشبيه واضح مكتمل الأركان ، وكان في إمكانه ﷺ أن يقتصر على هذا القول ؛ لكنه عزز القول بالفعل عن طريق تشبيك أصابعه الشريفة ﷺ ؛ لأنه أراد أن يؤكد معنى التعاون والترابط في نفوس المسلمين ، ومن المعلوم أن التمثيل بالشيء المشاهد المحسوس عقب المعاني يكون أقوى تأثيراً في النفس ، وأشد علوقاً بالقلب وأكثر ثباتاً في الذهن، ولذلك يقولون : (ليس الخبر كالعيان ، ولا الظن كاليقين) ، والمعلوم بطريق الحس أسبق حصولاً للنفس من العقل .

٣- رسم حلقة بالإبهام والسبابة :

ويغتنم الرسول ﷺ مرونة الأصابع وقدرتها على التشكل فيرسم بإصبعيه الإبهام والسبابة حلقة يصور بها بيان القدر الذي فتح من ردم يأجوج ومأجوج وذلك فيما رواه البخاري " عَنْ زَيْنَبَ ابْنَةِ جَحْشٍ – رضى الله عنهن أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا فَزِعاً يَقُولُ « لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ » . وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الإِبْهَامِ

---

(١) صحيح البخاري ح / ٥٨٢٩ ، كتاب : اللباس ، باب : لبس الحرير وافتراشه للرجال وقدر ما يجوز منه ٤ / ٩٩ .

(٢) راجع : عمدة القاري ٢٢ / ٩ .

(٣) صحيح البخاري ح / ٤٨ ، كتاب : الصلاة ، باب : تشبيك الأصابع في المسجد وغيره ١ / ٢٤١ .

وَالَّتِي تَلِيهَا . قَالَتْ زَيْنَبُ ابْنَةُ جَحْشٍ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ قَالَ « نَعَمْ ، إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ » . (١)

إن هذا الحديث الشريف دليل مادي على أن "الإشارة" قد تأتي في مقامات يعجز "اللفظ" عن النهوض بمعانيها ، والدليل على ذلك أنك لو أردت أن تأتي بمشبه به لما فتح من ردم يـأجوج ومأجوج بغير الإشارة ؛ لأعجزك هذا ، أو أعوزك إلى تكلف لا ينهض بتوضيح القدر المراد . فقد قامت الإشارة هنا (... وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا) بدور المشبه به الذي يرسم بصورة محسوسة مشاهدة للعيان مقدار ما فتح من ردم يأجوج ومأجوج ...ولاشك أن المشبه به أكمل في البيان وأوضح من المشبه لا سيما وأن الإشارة ممثلة مشاهدة .

فالإشارة هنا أثارت انتباه السامعين ، وجعلتهم ينظرون إلى هـذين الإصـبعين بترقـب وحذر ؛ لأن الأمر فيه خطر وويل للعرب ما لم يتسلح المسلمون بالعمل الصالح واللجوء إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، حيث إنهما الطريق الأوحد لدرء الفتن .

وإنما خص العرب بالذكر في قوله ﷺ : (ويل للعرب) ؛ لأن معظم شرهم راجع إليهم ، أو لأنهم أول من دخل في الإسلام ، وللإنذار بأن الفتن إذا وقعت كان الهلاك إليهم أسرع(٢).

٤- الحساب بالأصابع :

ويستغل الرسول ﷺ مرونة الأصابع ـ أيضاً ـ ودلالتها العددية فيستعملها في التعـبير عن أسماء المعدودات ، من ذلك ما رواه البخاري :" عن أَبِي مَسْعُودٍ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ « نَزَلَ جِبْرِيلُ فَأَمَّنِي ، فَصَلَّيْتُ مَعَهُ ، ثُمَّ صَلَّيْتُ مَعَهُ ، ثُمَّ صَلَّيْتُ مَعَهُ ، ثُمَّ صَلَّيْتُ مَعَهُ ، ثُمَّ صَلَّيْتُ مَعَهُ » . يَحْسُبُ بِأَصَابِعِهِ خَمْسَ صَلَوَاتٍ ". (٣)

فالرسول ﷺ يريد أن يعلم أمته ويقرر في أذهانهم أن الصلوات المفروضة خمس صلوات ؛ لهذا لجأ إلى أسلوب (التكرار) خمس مرات : (فَصَلَّيْتُ مَعَهُ ، ثُمَّ صَلَّيْتُ مَعَهُ ، ثُمَّ صَلَّيْتُ مَعَهُ ، ثُمَّ صَلَّيْتُ مَعَهُ ، ثُمَّ صَلَّيْتُ مَعَهُ) ...وزيادة في تأكيد عدد الصلوات المفروضة استخدم الرسول ﷺ الحساب بأصابعه عقب كل مرة يعدد فيها الصلاة : (يَحْسُبُ بِأَصَابِعِهِ خَمْسَ صَلَوَاتٍ) .

ويتخطى الرسول ﷺ في الحساب بأصابعه التعبير عن الأعداد المفـردة ، إلى الأعـداد المركبة والمعطوفة ، ويطوعها بمهارة القادر وبلاغة المعبر عن النهوض بذلك على أتم وجه وأوفاه ..

---

(١) صحيح البخاري ح / ٣٣٤٦ ، كتاب : أحاديث الأنبياء ، باب : قصة يأجوج ومأجوج ٢ / ٦٤٧ .

(٢) راجع : عمدة القاري ٢٤ / ١٨١ .

(٣) صحيح البخاري ح/ ٣٢٢١ ، كتاب : بدء الخلق ، باب : ذكر الملائكة ٢ / ٦٠١ .

من ذلك إشارته ﷺ إلى أن أيام الشهر تدور ما بين تسعة وعشرين أو ثلاثين يوماً : " روت عائشة عن الرسول ﷺ ؛ قالت: أقسم رَسُولَ اللَّه ﷺ أن لا يدخل على نسائه شهرا. فمكث تسعة وعشرين يوما. حتى إذا كان مساء ثلاثين، دَخل عليَّ. فقلت: إنك أقسمت أن لا تدخل علينا شهراً ! ، فقال ((الشهر هكذا)) يرسل أصابعه فيه ثلاث مرات ، (والشهر هكذا) ،وأرسل أصابعه كلها وأمسك إصبعا واحدا في الثالثة". (١)

وإنما لجأ الرسول ﷺ إلى الإشارة بأصابعه دون أن يقول مثلاً : الشهر تسع وعشرون يوماً ،والشهر ثلاثون يوماً ؛ لأن الإشارة والحساب بأصابعه عن طريق الحس المشاهد آكد في الدلالة على العدد ، وأدعى لأن يستحضره المخاطبون في أذهانهم ، لا سيما أن العرب كانوا أمة أمية لا تكتب ولا تحسب ، يؤيد هذا ما ورد عنه ﷺ أَنَّهُ قَالَ :« إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ ، لاَ نَكْتُبُ وَلاَ نَحْسُبُ الشَّهْرُ هَكَذَا وَهَكَذَا » . يَعْنِى مَرَّةً تِسْعَةً وَعِشْرِينَ ، وَمَرَّةً ثَلاَثِينَ ". (٢)

٥- مصّ الأصابع :

وفي مقام الحديث عن المعجزات الخارقة يستخدم الرسول ﷺ الإشارة بوضع السبابة في الفم مع مصها ؛ ليصور ويمثل رضاع الطفل الذي تكلم في المهد ..وذلك فيما رواه البخاري : "عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِىِّ ﷺ قَالَ « لَمْ يَتَكَلَّمْ فِى الْمَهْدِ إِلاَّ ثَلاَثَةٌ عِيسَى ، وَكَانَ فِى بَنِى إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ جُرَيْجٌ ، كَانَ يُصَلِّى ، فَجَاءَتْهُ أُمُّهُ فَدَعَتْهُ ، فَقَالَ أُجِيبُهَا أَوْ أُصَلِّى . فَقَالَتِ اللَّهُمَّ لاَ تُمِتْهُ حَتَّى تُرِيَهُ وُجُوهَ الْمُومِسَاتِ . وَكَانَ جُرَيْجٌ فِى صَوْمَعَتِهِ ، فَتَعَرَّضَتْ لَهُ امْرَأَةٌ وَكَلَّمَتْهُ فَأَبَى ، فَأَتَتْ رَاعِياً ، فَأَمْكَنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا فَوَلَدَتْ غُلاَماً ، فَقَالَتْ مِنْ جُرَيْجٍ . فَأَتَوْهُ فَكَسَرُوا صَوْمَعَتَهُ ، وَأَنْزَلُوهُ وَسَبُّوهُ ، فَتَوَضَّأَ وَصَلَّى ثُمَّ أَتَى الْغُلاَمَ فَقَالَ مَنْ أَبُوكَ يَا غُلاَمُ قَالَ الرَّاعِى . قَالُوا نَبْنِى صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ . قَالَ لاَ إِلاَّ مِنْ طِينٍ . وَكَانَتِ امْرَأَةٌ تُرْضِعُ ابْناً لَهَا مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ ، فَمَرَّ بِهَا رَجُلٌ رَاكِبٌ ذُو شَارَةٍ ، فَقَالَتِ اللَّهُمَّ اجْعَلِ ابْنِى مِثْلَهُ . فَتَرَكَ ثَدْيَهَا ، وَأَقْبَلَ عَلَى الرَّاكِبِ فَقَالَ اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْنِى مِثْلَهُ . ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى ثَدْيِهَا يَمَصُّهُ – قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ كَأَنِّى أَنْظُرُ إِلَى النَّبِىِّ ﷺ يَمَصُّ إِصْبَعَهُ – ثُمَّ مُرَّ بِأَمَةٍ فَقَالَتِ اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْ ابْنِى مِثْلَ هَذِهِ . فَتَرَكَ ثَدْيَهَا فَقَالَ اللَّهُمَّ اجْعَلْنِى

(١) راجع : صحيح البخاري ح / ١٩١١ ، كتاب الصوم ، باب : قول النبي ﷺ : إذا رأيتم الهلال فصوموا " واللفظ لابن ماجه في سننه ، ح/ ٢٠٥٩ ، كتاب الطلاق باب : الإيلاء، تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقي ، ط/ دار إحياء التراث العربي ــ بيروت ــ .

(٢) صحيح البخاري ح / ١٩١٣،كتاب الصوم،باب :قول النبي ﷺ لا نكتب ولا نحسب ٢ / ٦٠ .

مِثْلَهَا . فَقَالَتْ لِمَ ذَاكَ فَقَالَ الرَّاكِبُ جَبَّارٌ مِنَ الْجَبَابِرَةِ ، وَهَذِهِ الأَمَةُ يَقُولُونَ سَرَقْتِ زَنَيْتِ . وَلَمْ تَفْعَلْ »[1] .

ولما كان كلام الطفل الرضيع في المهد يعد معجزة خارقة للعادة ، أراد الرسول ﷺ أن يؤكد هذا الفعل الخارق عن طريق استخدام الإشارة التي صورت ومثلت بدقة بالغة حالة الطفل وهو يرضع ثدي أمه (كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَمَصُّ إِصْبَعَهُ) .

فالإضافة التي حملتها الإشارة في هذا المقام جعلت الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ يستحضرون صورة رضاع الطفل الصغير من ثدي أمه ، حتى رأينا أبا هريرة ينقل لنا هذه الإشارة عن رسول الله ﷺ ؛لأنه يعلم دلالتها في الكلام حيث إنها تؤكد على فعل خارق للعادة ، وهو كلام الطفل الرضيع في المهد .

(١) صحيح البخاري ح/ ٣٤٣٦ ، كتاب : أحاديث الأنبياء ، باب : قول الله : "واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها " ٢ / ٦٩١ .

المبحث الثاني

الإشارة باليد

(اليد) من أنواع الإشارات التي استخدمها الرسول ﷺ في بيانه ، وقد طوعها لتنوب مناب اللفظ في مقامات كثيرة ، نهضت فيها بتصوير وتشخيص المعنى المراد في ذهن المتلقي بدقة رائعة ..ومن استخدام الإشارة باليد ما يلي :

١- تحريف اليد للإشارة إلى القتل :

روى البخاري "عن أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ « يُقْبَضُ الْعِلْمُ ، وَيَظْهَرُ الْجَهْلُ وَالْفِتَنُ ، وَيَكْثُرُ الْهَرْجُ » . قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْهَرْجُ فَقَالَ هَكَذَا بِيَدِه ، فَحَرَّفَهَا ، كَأَنَّهُ يُرِيدُ الْقَتْلَ" . (١)

لقد أجاب الرسول ﷺ عن معنى (الهرج) بالإشارة ، حيث أشار بيده محرفة كأنه يضرب عنق الإنسان ، للدلالة على القتل .

والدليل على أن هذه الإشارة بهذه الهيئة تعني :(القتل) ما ورد عن النبي ﷺ في حديث آخر ، قَالَ :« يَتَقَارَبُ الزَّمَانُ ، وَيَنْقُصُ الْعَمَلُ ، وَيُلْقَى الشُّحُّ ، وَتَظْهَرُ الْفِتَنُ ، وَيَكْثُرُ الْهَرْجُ » ، قيل : وما الهرج يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟.قَالَ: "الْقَتْلُ الْقَتْلُ » . (٢)

إن بلاغة الإشارة هنا تكمن في أنها جعلت المخاطب والسامع يستحضر صورة القتل البشعة في مخيلته ، وهذا أدعى للتنفير منه ، والبعد عنه ، وتلك قيمة بلاغية عالية تنهض بها الإشارة في مقام لا يتوفر لغيرها من الأساليب البيانية الأخرى .

٢- الإشارة باليدين مجتمعين :

وفي مقام تعليم المسلمين كيفية الغسل وهيئته ، يستخدم الرسول ﷺ الإشارة بيديه مصوراً وموضحاً طريقة الغسل .. من ذلك ما رواه البخاري "عن جُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « أَمَّا أَنَا فَأُفِيضُ عَلَى رَأْسِي ثَلاَثًا». وَأَشَارَ بِيَدَيْهِ كِلْتَيْهِمَا ". (٣)

إن الإشارة في هذا المقام تحديداً مقتضى حال يفسد النظم دونها لأنها تصور وتوضح وتعلم المسلمين عن طريق الحس المشاهد كيفية الغسل : (وَأَشَارَ بِيَدَيْهِ كِلْتَيْهِمَا) ، أي : ثلاث حفنات كل واحدة منهن بملء الكفين جميعاً .

---

(١) صحيح البخاري ح/ ٨٥ ، كتاب : العلم ، باب : من أجاب الفتيا بإشارة اليد والرأس ١ / ٦٤ .

(٢) عمدة القاري ٢ / ٩٢ .

(٣) صحيح البخاري ح / ٢٥٤ ، كتاب : الغسل ، باب : من أفاض على رأسه ثلاثا ١ / ١٤٠.

٣- الضرب بالكفين على الأرض لبيان كيفية التيمم :

ويدرك الرسول ﷺ بذوقه الرفيع ، وبلاغته الرائقة ، دور الإشارة وقدرتها على إبراز المعاني في صورة مشاهدة محسوسة ـــ لا سيما في مقام التعليم ـــ فيوظفها ليعلم المسلمين عمليا طريقة التيمم ، فيقر في أذهانهم ، ويتمكن في مخيلتهم فلا ينسوه بعد ذلك أبداً .

روى البخاري : " عَنْ سَعِيد بْنِ عَبْد الرَّحْمَنِ بْنِ أَبْزَى عَنْ أَبِيه قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّاب فَقَالَ إِنِّي أَجْنَبْتُ فَلَمْ أُصِبِ الْمَاءَ . فَقَالَ عَمَّارُ بْنُ يَاسِر لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّاب أَمَا تَذْكُرُ أَنَّا كُنَّا فِي سَفَر أَنَا وَأَنْتَ فَأَمَّا أَنْتَ فَلَمْ تُصَلِّ ، وَأَمَّا أَنَا فَتَمَعَّكْتُ فَصَلَّيْتُ ، فَذَكَرْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ « إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ هَكَذَا » . فَضَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ بِكَفَّيْهِ الأَرْضَ ، وَنَفَخَ فِيهِمَا ثُمَّ مَسَحَ بِهِمَا وَجْهَهُ وَكَفَّيْهِ ". (١)

فانظر .. هل ترى لفظاً يقوم مقام الإشارة في هذا السياق ؟ وهل تنهض العبارات الكثيرة في تصوير ما حملته الإشارة الموجزة ؟ وهل تشك ـــ أدنى شك ـــ في قدرة الإشارة على الوفاء بما قصر عنه اللفظ ؟

ثم دع عنك هذا ...ووازن بين إشارة النبي ﷺ وفعله في هذا الحديث ، وبين قولنا : إنما كان يكفيك أن تضرب بكفيك الأرض ، ثم تنفخ فيهما ، ثم تمسح بهما وجهك وكفيك ..تجد بوناً شاسعاً بين إشارة الرسول ﷺ وبين اللفظ المنطوق ، وتستشعر دلالة الإشارة في ترسيخ المعنى المراد وتمكينه في النفس .

٤- الإشارة باليد للدلالة على القلة :

ويوظف الرسول ﷺ الإشارة باليد ؛ للدلالة على القلة والقصر ، من ذلك ما رواه البخاري : " عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ ذَكَرَ يَوْمَ الْجُمُعَة فَقَالَ « فِيه سَاعَةٌ لاَ يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ ، وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي، يَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى شَيْئاً إِلاَّ أَعْطَاهُ إِيَّاهُ » . وَأَشَارَ بِيَدِه يُقَلِّلُهَا ". (٢)

والمتأمل في نظم الحديث يلحظ أن الرسول ﷺ نكر لفظ (ساعة) إشارة إلى التقليل ، وقد أكد المعنى باستخدام الإشارة-(وَأَشَارَ بِيَدِه يُقَلِّلُهَا) ، فالإشارة هنا قائمة مقام النعت لكلمة (ساعة) ، أي :ساعة قليلة.

والحكمة في تقليل الساعة في هذا اليوم هي الترغيب فيها ، والحث على الاجتهاد والطاعة حتى ينال المسلم إجابة دعائه .

واختلف في بيان وقتها ، فقيل هي مخفية في جميع اليوم ، وقيل إنها تنتقل في يوم الجمعة ولا تلزم ساعة معينة ، وقيل من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس. (٣)

---

(١) صحيح البخاري ح/ ٣٣٨ ، كتاب : التيمم ، باب : المتيمم هل ينفخ فيهما ١ / ١٧٥ .

(٢) السابق ح/ ٩٣٥ ، كتاب : الجمعة ، باب : الساعة التي في يوم الجمعة ١ / ٤٠٩ .

(٣) راجع : عمدة القاري ٦ / ٢٤٣ .

٥- الإشارة باليد على الأنف :

روى البخاري : "عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضى الله عنهما قَالَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ « أُمِرْتُ أَنْ أَسْجُدَ عَلَى سَبْعَةِ أَعْظُمٍ عَلَى الْجَبْهَةِ – وَأَشَارَ بِيَدِهِ عَلَى أَنْفِهِ – وَالْيَدَيْنِ ، وَالرُّكْبَتَيْنِ وَأَطْرَافِ الْقَدَمَيْنِ ، وَلاَ نَكْفِتَ الثِّيَابَ وَالشَّعَرَ » [١].

فقد وظف الرسول ﷺ الإشارة بيده على أنفه ، للدلالة على أن الجبهة والأنف عضو واحد ، ولبيان ضرورة السجود عليهما معاً ، يقول العيني : " قوله : (وَأَشَارَ بِيَدِهِ عَلَى أَنْفِهِ) جملة معترضة بين المعطوف عليه وهو(الجبهة) والمعطوف وهو (اليدين) ،والغرض منهما بيان أنهما عضو واحد ، فدل على أنه ﷺ سوى بين الجبهة والأنف ؛لأن عظمي الأنف يبتدئان من قرنة الحاجب وينتهيان عند الموضع الذي فيه الثنايا والرباعيات "[٢] .

يؤيد هذا رواية النسائي : " ووضع يده على جبهته وأمَرها على أنفه ، قال : هذا واحد "[٣] ، وهذا التوجيه لدلالة الإشارة يرفع أيضاً توهم أن أعضاء السجود ثمانية أخذاً من ظاهر الحديث .

٦- رفع اليدين :

وفي مقام الترهيب والتحذير من سلوك يخالف تعاليم الشريعة ، يستخدم الرسول ﷺ الإشارة برفع يديه إلى أعلى ؛ للدلالة على التبليغ والإشهاد وتبرئة لساحته ﷺ .

من ذلك ما رواه البخاري : "عن حُمَيْد السَّاعديُّ قَالَ اسْتَعْمَلَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلاً مِنْ بَنِي أَسَد يُقَالُ لَهُ ابْنُ الأُتَبِيَّة عَلَى صَدَقَة فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أُهْدِيَ لِي . فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ – قَالَ سُفْيَانُ أَيْضاً فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ – فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ « مَا بَالُ الْعَامِلِ نَبْعَثُهُ ، فَيَأْتِي يَقُولُ هَذَا لَكَ وَهَذَا لِي . فَهَلاَّ جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ فَيَنْظُرُ أَيُهْدَى لَهُ أَمْ لاَ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يَأْتِي بِشَيْءٍ إِلاَّ جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى رَقَبَتِهِ ، إِنْ كَانَ بَعِيراً لَهُ رُغَاءٌ ، أَوْ بَقَرَةً لَهَا خُوَارٌ ، أَوْ شَاةً تَيْعَرُ» ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَيْنَا عُفْرَتَيْ إِبْطَيْهِ « أَلاَ هَلْ بَلَّغْتُ » ثَلاَثاً [٤].

إن الهدايا التي يأخذها العمال القائمون على أمر الصدقة ــ أو القائمون على أمور المسلمين عامة ــ لابد وأن يتبعها تغاض ومحاباة للمأخوذ منه ، وعندئذ لا تكون إلا رشوة وخيانة وغلولاً ..ولخطورة هذا الأمر رهَّب منه الرسول ﷺ ، وبين في لغة معبرة عن انفعال غاضب ،

---

(١) صحيح البخاري ح / ٨١٢ ، كتاب : الآذان ، باب : السجود على الأنف ١ / ٣٦٤ .

(٢) عمدة القاري ٦ / ٩٢ .

(٣) فتح الباري لابن حجر العسقلاني ٢ / ٣٤٨ ، ط: دار الريان للتراث .

(٤) صحيح البخاري ح / ٧١٧٤ ، كتاب : الأحكام ن باب : هدايا العمال ٤ / ٥٣٨ .

وإنكار جارف لحالات سلوكية خارجة عن روح الشريعة ؛أن هذا المستأثر للهدايا باسم العمل من مال المسلمين خائن قد استهواه الشيطان ،وأنه يأتي يوم القيامة يحمل ما أُهدي إليه على رقبته أمام الخلائق تحقيراً له وتشهيراً بفضيحته .

وتأتي إشارة الرسول ﷺ : (... رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَيْنَا عُفْرَتَىْ إِبْطَيْهِ) للتأكيد على أنه بلّغ الجميع ، وأشهد الله عليهم ، وبذلك يكون قد برأ ساحته من أي عذر لمعتذر .

وتأمل قول الراوي : (حَتَّى رَأَيْنَا عُفْرَتَىْ إِبْطَيْهِ) أي : البياض المخالط للحمرة ، وما يوحي به ذلك من أنه ﷺ رفع يديه إلى أقصاها إشارة إلى تأكيد الإشهاد والإبلاغ ،ودلالة على خطورة الأمر الموهب منه .

وزيادة في تأكيد الإشهاد عليهم والتبليغ لهم يكرر الرسول ﷺ قوله: (ألا هل بلغت) ثلاث مرات .

٧- الإشارة باليد إلى جهة من الجهات :

روى البخاري :"عن أَبِي مَسْعُود قَالَ أَشَارَ رَسُولُ اللَّه ﷺ بِيَده نَحْوَ الْيَمَن فَقَالَ « الإِيمَانُ يَمَان هَا هُنَا ، أَلاَ إِنَّ الْقَسْوَةَ وَغِلَظَ الْقُلُوبِ فِى الْفَدَّادِينَ [1] عِنْدَ أُصُولِ أَذْنَابِ الإِبِلِ ، حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنَا الشَّيْطَانِ فِى رَبِيعَةَ وَمُضَرَ »[2] .

إن إشارة الرسول ﷺ بيده ناحية أهل اليمن ، ومصاحبتها لقوله : (الإِيمَانُ يَمَانٍ هَا هُنَا) تدل على اختصاص وتمييز أهل اليمن بالإيمان وهذا مدح لهم وبيان لفضلهم ومنزلتهم ، وسبب هذه المنزلة وهذا الاختصاص أنهم كانوا أسرع إلى قبول الإسلام ،وأرق أفئدة من غيرهم[3] .

ومن المقرر أن التعريف بالإشارة ــ الحسية أو اللفظية ــ يؤتى بها لأغراض بلاغية ، أهمها : أن يقصد تمييز المشار إليه لإحضاره في ذهن السامع حساً[4] ، وهذا أمر قد نهضت به إشارة الرسول ﷺ بيده نحو أهل اليمن تمييزاً لهم وتنبيهاً على فضلهم ومنزلتهم ، وحثاً للناس على التحلي بأخلاقهم والتشبه بأفعالهم .

وفي المقابل يستخدم الرسول ﷺ الإشارة بيده نحو المشرق ، دلالة على اختصاص هذه الجهة بالفتن ، وأن الفتن تبدأ من قبل المشرق ...روى البخاري : " عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ – رضى

---

(١) الفدادون : قيل هم المكثرون من الإبل الذين تعلوا أصواتهم في حروثهم ومواشيهم ، وهم أهل جفاء وخيلاء ، وقيل : هم الحمالون والبقارون والحمارون والرعيان الذين يشتغلون عن ذكر الله ــ عز وجل ــ راجع : كشف المشكل لابن الجوزي ٢ / ٦٢٩ بهامش صحيح البخاري ، ط/ دار الحديث بالقاهرة ، ط. أولى ، ٢٠٠٠ م .

(٢) صحيح البخاري ح / ٣٣٠٢ ، كتاب : بدء الخلق ، باب : خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ٢ / ٦٢٨ .

(٣) راجع : فتح الباري لابن حجر ٦ / ٤٠٦ ، ط/ دار الريان للتراث .

(٤) راجع شروح التلخيص ١ / ٣١٣ ، ط/ دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ بدون .

الله عنهما – قَالَ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يُشِيرُ إِلَى الْمَشْرِقِ فَقَالَ « هَا إِنَّ الْفِتْنَةَ هَا هُنَا إِنَّ الْفِتْنَةَ هَا هُنَا مِنْ حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ »[1] .

وإنما أشار ﷺ بيده إلى المشرق وخصهم بذلك ؛ "لأن أهله يومئذ كانوا أهل كفر ، فأخبر أن الفتنة تكون من تلك الناحية ، وكذلك كانت وهي وقعة الجمل ، ووقعة صفين ، ثم ظهور الخوارج في أرض نجد والعراق وما ورائها من المشرق ، وكانت الفتنة الكبرى التي كانت مفتاح فساد ذات البين قتل عثمان ـــ رضي الله تعالى عنه ـــ وكان ﷺ يحذر من ذلك ويُعْلِمُ به قبل وقوعه وذلك من دلالات نبوته ﷺ "[2] .

وقيل إن تخصيص الفتن بالمشرق ؛ لأن الدجال يخرج من تلك الناحية، وكذلك يأجوج ومأجوج .[3] .

٨- الإشارة باليد إلى الرباعية :

روى البخاري :"عن أبي هُرَيْرَةَ – رضى الله عنه – قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ « اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّه عَلَى قَوْمٍ فَعَلُوا بِنَبِيِّه – يُشِيرُ إِلَى رَبَاعِيَتِه – اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّه عَلَى رَجُلٍ يَقْتُلُهُ رَسُولُ اللَّه ﷺ فِى سَبِيلِ اللَّه».[4]

سبب ورود هذا الحديث ، أن النبي ﷺ لما جُرِح يوم أُحد وشجَّ في وجهه وكلمت شفته وكسرت رباعيته ، واقبل أُبَي بن خلف الجمحي ، وقد حلف ليقتلن محمداً ، فقال بل أنا أقتلك ، وقال له : يا كذاب أين تفر؟ فحمل عليه فطعنه في جيب الدرع فوقع يخور خوار الثور ، فاحتملوه، فلم يلبث إلا بعض يوم حتى راحت روحه إلى الهاوية ، فقال ﷺ في ذلك الوقت : (اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّه عَلَى قَوْمٍ فَعَلُوا بِنَبِيِّه – يُشِيرُ إِلَى رَبَاعِيَتِه – اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّه عَلَى رَجُلٍ يَقْتُلُهُ رَسُولُ اللَّه ﷺ فِى سَبِيلِ اللَّه).[5]

لقد وظف الرسول ﷺ الإشارة في هذا المقام (وأشار إلى رباعيته) لتنوب مناب المسند المحذوف من الكلام وتدل عليه ، والتقدير : اشتد غضب الله على قوم فعلوا بنبيه هذا الكسر لرباعيته .

---

(١) صحيح البخاري ح / ٣٢٧٩ ، كتاب : بدء الخلق ، باب : صفة إبليس وجنوده ٢ / ٦١٩ .
(٢) عمدة القاري ٢٤ / ١٩٩ .
(٣) راجع : كشف المشكل لابن الجوزي ٢ / ٥٤٧ .
(٤) صحيح البخاري ح / ٤٠٧٣ ، كتاب : المغازي ، باب : ما أصاب النبي ﷺ من الجراح يوم أحد .
(٥) عمدة القاري ١٧ / ١٦٠ .

واستخدم الرسول ﷺ الإشارة في هذا المقام وترك ذكر المسند ؛ للإشعار بتعظيم المحذوف وهو كسر رباعيته ﷺ ، أو احترازاً عن العبث ؛ وذلك لدلالة المقام على المحذوف بقرينة الحال كما بينا في سبب هذا الحديث أنه ﷺ قال هذا الحديث لما رأى ما أصابه من كسر رباعيته يوم أحد .. يقوي هذا الوجه تعبير الراوي بلفظ (يشير) دون (أشار) .

وإنما اشتد غضب الله على رجل أَدْمَى وجه النبي ﷺ وكسر رباعيته، أو قتله رسول الله ﷺ ؛ لأن الرسول يُرجى منه الرحمة واللطف ، فإذا اشتد غضبه وأُخْرِجَ إلى القتل دلَّ على أن المقتول في غاية الشقاء ، وقد قتل ﷺ أُبَيَّ بن خلف يوم أُحد . (١)

٩- الإيماء باليد للإجابة على السائل :

وفي مقام الإجابة على الفُتْيا لبيان حكم شرعي يستخدم الرسول ﷺ الإشارة بيده ، روى البخاري : " عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئِلَ فِى حَجَّتِه فَقَالَ ذَبَحْتُ قَبْلَ أَنْ أَرْمِيَ ، فَأَوْمَأَ بِيَدِهِ قَالَ وَلاَ حَرَجَ . قَالَ حَلَقْتُ قَبْلَ أَنْ أَذْبَحَ . فَأَوْمَأَ بِيَدِهِ وَلاَ حَرَجَ . (٢)

فقد طوع الرسول ﷺ يده لتنوب مناب اللفظ في الدلالة على صحة صنيع السائل من ذبحه قبل رميه ، ومن حلقه قبل ذبحه .

---

(١) كشف المشكل لابن الجوزي ٣ / ١٦٧ .

(٢) صحيح البخاري ح / ٨٤ ،كتاب العلم ،باب:من أجاب الفتيا بإشارة اليد والرأس١ / ٦٤

المبحث الثالث

الإشارة بالرأس

المتتبع والمستقرئ لأحاديث الرسول ﷺ يلحظ قلة استخدامه للإشارة بالرأس مقارنة بغيرها من الإشارات السابقة ، ولعل هذا راجع إلى عدم مرونة الرأس وضعف قدرتها على التشكل بحركات مختلفة ؛ نظراً لالتصاقها بالجسد .

ورغم هذا فإننا لا نعدم أن نجد شواهد للإشارة بالرأس في صحيح البخاري ، وظفها الرسول ﷺ لإبلاغ حكم ، أو الرد على استفهام ، فنهضت بحمل المعنى المراد في أوضح بيان .

من ذلك ما رواه البخاري : "عن عَائِشَةَ أَنها كَانَتْ تَقُولُ : إِنَّ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيَّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تُوُفِّيَ فِي بَيْتِي وَفِي يَوْمِي ، وَبَيْنَ سَحْرِي وَنَحْرِي ، وَأَنَّ اللَّهَ جَمَعَ بَيْنَ رِيقِي وَرِيقِهِ عِنْدَ مَوْتِهِ ، دَخَلَ عَلَيَّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ وَبِيَدِهِ السِّوَاكُ وَأَنَا مُسْنِدَةٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَرَأَيْتُهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ ، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ يُحِبُّ السِّوَاكَ فَقُلْتُ آخُذُهُ لَكَ فَأَشَارَ بِرَأْسِهِ أَنْ نَعَمْ ، فَتَنَاوَلْتُهُ فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ وَقُلْتُ أُلَيِّنُهُ لَكَ فَأَشَارَ بِرَأْسِهِ أَنْ نَعَمْ ، فَلَيَّنْتُهُ ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ - أَوْ عُلْبَةٌ يَشُكُّ عُمَرُ - فِيهَا مَاءٌ ، فَجَعَلَ يُدْخِلُ يَدَيْهِ فِي الْمَاءِ فَيَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ يَقُولُ « لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ » . ثُمَّ نَصَبَ يَدَهُ فَجَعَلَ يَقُولُ « فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى » . حَتَّى قُبِضَ وَمَالَتْ يَدُهُ . (١)

فقد طوع الرسول ﷺ الإشارة برأسه لتقول (نعم) نيابة عن اللفظ ، وإجابة على سؤال السيدة عائشة ــ رضي الله عنها ــ (آخذه لك ؟... أليِّنه لك ؟) .

وغير خاف أن الناس تواضعوا وتعارفوا على أن الإشارة بالرأس إلى أعلى وأسفل تعني (نعم) ، وأن الإشارة بالرأس يميناً وشمالاً تعني (لا) ، ولهذا فهمت السيدة عائشة ــ رضي الله عنها من إشارته ﷺ أنه يعني (نعم) فقالت: (فَأَشَارَ بِرَأْسِهِ أَنْ نَعَمْ) .

واستخدم الرسول ﷺ الإشارة بالرأس في مواضع لا يحمد فيها اللفظ، ترفعاً عما يوقع السائل فيه من خجل ..روى البخاري : " عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ أَنَّ امْرَأَةً جَاءَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ جِئْتُ لأَهَبَ لَكَ نَفْسِي . فَنَظَرَ إِلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَصَعَّدَ النَّظَرَ إِلَيْهَا وَصَوَّبَهُ ، ثُمَّ طَأْطَأَ رَأْسَهُ ، فَلَمَّا رَأَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّهُ لَمْ يَقْضِ فِيهَا شَيْئاً جَلَسَتْ ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ أَىْ رَسُولَ اللَّهِ إِنْ لَمْ تَكُنْ لَكَ بِهَا حَاجَةٌ فَزَوِّجْنِيهَا . فَقَالَ « هَلْ عِنْدَكَ مِنْ شَىْءٍ » . قَالَ لاَ وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ « اذْهَبْ إِلَى أَهْلِكَ فَانْظُرْ هَلْ تَجِدُ شَيْئاً » . فَذَهَبَ ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ لاَ وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا وَجَدْتُ شَيْئاً . قَالَ « انْظُرْ وَلَوْ خَاتَماً مِنْ حَدِيدٍ » . (٢)

---

(١) صحيح البخاري ح / ٤٤٤٩ ، كتاب : المغازي ، باب : مرض النبي ﷺ ووفاته ٣ / ٢٩٦ .

(٢) صحيح البخاري ح / ٥١٢٦ ، كتاب :النكاح ، باب : النظر على المرأة قبل التزويج ٣ / ٦١١ .

أدبُ الرسول ـــ ﷺ ـــ الرفيع ، وخلقه العظيم ، وخبرته بمتطلبات المقام . أمور دعته أن يستخدم الإشارة (طأطأ رأسه) دون اللفظ ، وذلك عندما عرضت عليه امرأة نفسها ليتزوجها . فالرسول ﷺ لم تكن عنده رغبة ولا حاجة في أن يتزوج من هذه المرأة ، ولم يشأ أن يوقعها في خجل يؤذي مشاعرها ، فترك التعبير عن الرفض وعدم الحاجة باللفظ إلى الإشارة (طأطأ رأسه) التي وقعت موقع الكناية عن الرفض وعدم الحاجة ..فأبلغت الإشارة خير إبلاغ وحملت المراد بدقة ووضوح ؛ مما دعا المرأة أن تجلس وتسكت لما رأت ذلك من الرسول ﷺ .

وفي مقام الأحكام المتعلقة بالحدود والقصاص ، يأخذ الرسول ﷺ بإشارة الجارية التي أومأت برأسها أن فلاناً اليهودي هو الذي رضَّ رأسها بين حجرين، فيقتص منه ﷺ .

روى البخاري " عَنْ أَنَسٍ – رضى الله عنه – أَنَّ يَهُودِيًّا رَضَّ رَأْسَ جَارِيَةٍ بَيْنَ حَجَرَيْنِ ، فَقِيلَ لَهَا مَنْ فَعَلَ بِكِ ، أَفُلاَنٌ أَوْ فُلاَنٌ حَتَّى سُمِّيَ الْيَهُودِيُّ ، فَأَوْمَأَتْ بِرَأْسِهَا ، فَجِيءَ بِهِ ، فَلَمْ يَزَلْ حَتَّى اعْتَرَفَ ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ فَرُضَّ رَأْسُهُ بِالْحِجَارَةِ" . (١)

ولما كان الوجه داخلاً في الرأس ، استخدم الرسول ﷺ الإشارة (بإشاحة الوجه) للدلالة على الترهيب والتنفير مما أعرض عنه .

روى البخاري : " عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ « اتَّقُوا النَّارَ». ثُمَّ أَعْرَضَ وَأَشَاحَ ، ثُمَّ قَالَ « اتَّقُوا النَّارَ » .ثُمَّ أَعْرَضَ وَأَشَاحَ ثَلاَثًا، حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا ، ثُمَّ قَالَ « اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ » . (٢)

إن إشاحة النبي ﷺ بوجهه عقب قوله : (اتقوا النار) وتكرار ذلك ثلاث مرات يوحي بشدة هولها ولهيبها ، ويدل على التحذير والتنفير منها .

كما أن إعراض النبي ﷺ وإشاحته بوجهه عقب قوله (اتقوا النار) جعلتنا نستحضر صورتها البشعة في أذهاننا ونضعها أمام أعيننا لندرك هولها ، يؤكد هذا قول الراوي : (حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا) .

---

(١) صحيح البخاري ح / ٢٧٤٦ ، كتاب : الوصايا ، باب : إذا أومأ المريض برأسه إشارة جازت ٢ / ٤٠٦ .

(٢) السابق ح / ٦٥٣٩ ، كتاب : الرقاق ، باب : من نوقش الحساب عزب ٤ / ٣٢٤ .

المبحث الرابع
حركة الجسد

لجأ الرسول ﷺ في بعض المواضع إلى تغيير حركة جسده ؛ للدلالة على أهمية الموضوع الذي يتحدث عنه ، وبيان عظم أمره ، وشدة خطره ، وفداحة ضرره ، فيغير من جلسته ، ويعدل من وضع جسده .

من ذلك ما رواه البخاري " عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن أَبى بَكْرَةَ عَنْ أَبيه – رضي الله عنه – قَالَ قَالَ النَّبىُّ ﷺ « أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ » . ثَلاَثًا . قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّه . قَالَ « الإِشْرَاكُ بِاللَّه ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ » . وَكَانَ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ فَقَالَ :« أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ » . قَالَ فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ . (١)

أراد الرسول ﷺ أن يؤكد حرمة شهادة الزور ، وشدة خطرها ، وعظم قبحها ، فوظف الإشارة بحركة جسده (وَكَانَ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ) لتتأزر مع الوسائل البيانية الأخرى في تحقيق هذا المعنى .

والمتأمل في نظم الحديث يظهر له بجلاء شدة المبالغة في التحذير من شهادة الزور ، وترجع هذه الشدة إلى عدة أمور :

أولها : تغيير النبي ﷺ من حركة جسده ، وانتقاله المفاجئ من حال الاتكاء إلى حال الجلوس (وَكَانَ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ) وذلك قبل أن يخبر بقول الزور . بينما لم يجلس عند الإخبار بالشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، وهذا ينبئ بخطر شهادة الزور ، وشدة العقاب الذي أعد لقائل الزور وشاهده .

ثانيها : تكرار النبي ﷺ لعبارة (ألا وقول الزور) حتى تمنى الصحابة أن يسكت إشفاقاً عليه من كثرة التكرار وشدة الانفعال .

ثالثها : تصدير الإخبار عن قول الزور بأداة التنبيه (ألا) والتي يؤتى بها في الأمور المهمة ، تنبيهاً للمخاطب من غفلته ، وإيقاظاً لمشاعره ، وتهيئته لحواسه لكي يصغي إلى ما يأتي بعدها من معان مهمة ، ويلتفت إليها ، فتثبت تلك المعاني لديه وتقر في داخله . (٢)

ولا تعني المبالغة في التحذير من قول الزور ، التهوين من شأن الإشراك بالله وعقوق الوالدين ؛ لأن تلك المبالغة قد اقتضتها غفلة الناس عن خطر شهادة الزور .

---

(١) صحيح البخاري ح / ٢٦٥٤ ، كتاب : الشهادات ، باب : ما قيل في شهادة الزور ٢ / ٣٤٩ .

(٢) راجع : التشويق في الحديث النبوي للدكتور / بسيوني عبد الفتاح فيود صـ ٢٣ ، مطبعة الحسين الإسلامية بالقاهرة ط. أولى ١٩٩٣ م . ، والحديث النبوي من الوجهة البلاغية صـ ٨٣ ، والحديث النبوي مصطلحه وبلاغته د/ لطفي الصباغ صـ ١٠٠ ، ط/ المكتب الإسلامي بيروت ط. رابعة ١٩٨٢ م . ن وبلاغة الرسول د/ على العماري صـ ٣٥ ، ط/ دار الأنصار بالقاهرة (بدون) .

يقول ابن حجر : " ولكون قول الزور أو شهادة الزور أسهل وقوعاً على الناس والتهاون بها أكثر ، فإن الإشراك بالله ينبو عنه قلب المسلم ، والعقوق يصرف عنه الطبع ، أما الزور فالحوامل عليه كثيرة ، كالعداوة والحقد والحسد وغير ذلك ، فاحتيج إلى الاهتمام بتعظيمه ، وليس ذلك لعظمها بالنسبة على ما ذكر معها من الإشراك قطعاً ن بل لكون مفسدة الزور متعدية إلى غير الشاهد ، بخلاف الشرك فإن مفسدته قاصرة غالباً".(١)

ويستخدم الرسول ﷺ حركة الجسد السابقة (وَكَانَ مُتَّكِئاً فَجَلَسَ) في موضع آخر رواه البخاري : " عَنْ أَبِى مُوسَى أَنَّهُ كَانَ مَعَ النَّبِىِّ ﷺ فِى حَائِطٍ مِنْ حِيطَانِ الْمَدِينَةِ ، وَفِى يَدِ النَّبِىِّ ﷺ عُودٌ يَضْرِبُ بِهِ بَيْنَ الْمَاءِ وَالطِّينِ ، فَجَاءَ رَجُلٌ يَسْتَفْتِحُ ، فَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ « افْتَحْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ » . فَذَهَبْتُ فَإِذَا أَبُو بَكْرٍ ، فَفَتَحْتُ لَهُ وَبَشَّرْتُهُ بِالْجَنَّةِ ، ثُمَّ اسْتَفْتَحَ رَجُلٌ آخَرُ فَقَالَ « افْتَحْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ » . فَإِذَا عُمَرُ ، فَفَتَحْتُ لَهُ وَبَشَّرْتُهُ بِالْجَنَّةِ ، ثُمَّ اسْتَفْتَحَ رَجُلٌ آخَرُ ، وَكَانَ مُتَّكِئاً فَجَلَسَ فَقَالَ « افْتَحْ { لَهُ } وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ ، عَلَى بَلْوَى تُصِيبُهُ أَوْ تَكُونُ» . فَذَهَبْتُ فَإِذَا عُثْمَانُ ، فَفَتَحْتُ لَهُ ، وَبَشَّرْتُهُ بِالْجَنَّةِ ، فَأَخْبَرْتُهُ بِالَّذِى قَالَ . قَالَ اللَّهُ الْمُسْتَعَانُ . (٢)

(١) فتح الباري لابن حجر ٥ / ٣١١ ، وعمدة القاري ١٣ / ٢١٨ .
(٢) صحيح البخاري ح/ ٦٢١٦ ، كتاب : الأدب ، باب : نكت العود في الماء والطين ٤ / ٢١٢.

الفصل الثاني :
سمات التصوير بالإشارة والحركة الجسمية
في البيان النبوي
من خلال صحيح البخاري

توطئة :

إن بيان الرسول ﷺ وبلاغته أشرف نص أدبي ، وخير تراث بشري يستحق الدراسة والبحث ؛لأنه ذروة الذري من كلام البشر ، ولا يرتفع فوقه في مجال الأدب الرفيع إلا كتاب الله بلاغة ، وفصاحة وروعة .

يقول الجاحظ في وصف بيانه ﷺ : " هو الكلام الذي قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه وجل عن الصنعة ونزه عن التكلف ...استعمل المبسوط في موضع البسط ، والمقصور في موضع القصر ، وهجر الغريب الوحش ، ورغب عن الهجين السوقي ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة ، وشيد بالتأييد ، ويسر بالتوفيق .. ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ، ولا أصدق لفظاً ، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهباً ، ولا أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقعاً ، ولا أسهل مخرجاً ، ولا أفصح معنىً ولا أبين فحوى من كلامه ﷺ " . (١)

فقد أجمل الجاحظ سمات بيانه ﷺ دون تكلف أو تزيد فيها ، وليس غريباً أن يجتمع ذلك كله لرسول الله ﷺ ؛لأن الله أعلم حيث يجعل رسالته ، فبيانه ﷺ فيض من الحكمة والهدى أجراه الله على لسان نبيه ، قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ (٢) ، وبلاغته ﷺ قبس من نور القرآن العظيم ، " فألفاظ النبوة يعمرها قلب متصل بجلال خالقه ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه ، فهي إن لم تكن من الوحي ولكنها جاءت من سبيله ... فإذا أراك القرآن أنه خطاب السماء للأرض ، أراك هذا أنه كلام الأرض بعد السماء "(٣) .

ولعل من ابرز سمات الأسلوب النبوي : الخلوص ، والإيجاز ، والاستيفاء ، كما أشار الرافعي وفصل القول في ذلك ، مبيناً أنه "لاجتماع تلك الثلاثة في كلامه ﷺ ، وبناء بعضها على بعض ؛ سلم هذا الكلام العظيم من التعقيد والعي ، والخلط والانتشار ، وسلمت وجوهه من الاستعانة بما لا حقيقة له عن أصول البلاغة كالمجاز البعيد الذي يغوص إلى الأعمال الخيالية ، وضروب الإحالة وفساد الوضع المعنوي وفنون الصنعة..." .(٤)

وإذا كانت (الإشارة) من ضروب البيان ، وأحد أوجه البلاغة ، وكان الرسول ﷺ قد سلك طريق التصوير بالإشارة والحركة في بيانه ؛ فإنها ــ دون شك ــ تشترك في السمات العامة لأسلوبه ﷺ .

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ٢ / ١٦ ، ١٧ .

(٢) من الآية ٣٤ ، سورة الأحزاب .

(٣) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للأستاذ / مصطفى صادق الرافعي صـ ٢٣٣ ، تحقيق / عبد الله المنشاوي ، ط/ مكتبة الإيمان بالمنصورة ، ط. أولى ١٩٩٧ م .

(٤) السابق صـ ٢٨٣ .

وتحاول الدراسة ـــ بإذن الله تعالى ـــ في الصفحات القادمة أن تبرز أهم الأسماء التي يتسم بها التصوير بالإشارة والحركة في البيان النبوي .

١- سهولة الإشارة ووضوحها : بحيث يدرك المخاطب المعنى المراد منها بجلاء ووضوح منذ الوهلة الأولى ...ولن أستطرد كثيراً في توضيح هذه السمة من الناحية النظرية ، وأدعوك لتتلمس مظاهر هذه السهولة والوضوح من خلال إشاراته ﷺ في الأحاديث التي وردت عنه :

☜ " أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِى الْجَنَّةِ هَكَذَا » . وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى" يعني : القرب .

☜ " بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَذِهِ مِنْ هَذِهِ أَوْ كَهَاتَيْنِ » . وَقَرَنَ بَيْنَ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى ". يعني : القرب

☜ " الشَّهْرُ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا . يرسل أصابعه ثلاث مرات " يعني : ثلاثين يوماً .

☜ " الشَّهْرُ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا، وأرسل أصابعه كلها وأمسك واحداً في الثالثة " ، يعني : تسعة وعشرين .

☜ " فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ » . وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الإِبْهَامِ وَالَّتِى تَلِيهَا " للدلالة على القدر والحجم .

☜ " إِنَّ اللَّهَ لاَ يُعَذِّبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ ، وَلاَ بِحُزْنِ الْقَلْبِ ، وَلَكِنْ يُعَذِّبُ بِهَذَا - وَأَشَارَ إِلَى لِسَانِهِ " يعني : اللسان .

☜ "... ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَيْنَا عُفْرَتَىْ إِبْطَيْهِ " للدلالة على الإشهاد والتبليغ .

.... وهكذا في كل إشاراته وحركاته ﷺ تستطيع أن تلتقط المعنى المراد والدلالة المقصودة دون عناء ، وهذا راجع إلى سهولة الإشارة ووضوحها وبعدها عن الغموض والتعمية .

٢- تأكيد المعاني وتثبيتها في ذهن المخاطب : فكثيراً ما تكون دلالة اللفظ باردة فاترة ، وقد تكون غامضة غير واضحة ، لكن حين تصاحبه الإشارة والحركة يتأكد المعنى المراد ويتقرر في الذهن ، ويتضح بجلاء للبليغ والعيي ، والفطن والغبي ..وقد أدرك هذا الرسول ﷺ فأكثر من استعمال الإشارة في بيانه ، روي عنه أنه " إذا تحدث اتصل بها " . [1] ، أي : وصل حديثه بإشارة تؤكده .

تأمل قول الرسول ﷺ : " الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً » . وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ " ، تجد أنه ﷺ قد عزز القول بالإشارة (وشبك أصابعه) ليؤكد ويقرر معنى التعاون والترابط في نفوس المسلمين ..وقد وقعت الإشارة موقعها المناسب في نفوس المخاطبين ؛لأن تعقيب المعاني بالإشارة المحسوسة المشاهدة ، أدعى إلى قوة التأثير في النفس ، وأشد علوقاً بالقلب ، وأكثر ثباتاً في الذهن .

---

(١) راجع : النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٢ / ٥١٨ .

وانظر إلى قوله ﷺ : " أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا » . وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى " تلحظ أنه ﷺ وصل كلامه بإشارة تحكي التمثيل والقرب ، وهذا أدعى لترسيخ المعنى المقصود وتأكيده .

... وفي كثير من الشواهد التي حللناها ما يدلك على توفر هذه السمة ، التي قامت الإشارة فيها مقام أساليب التوكيد والإيضاح ، فكانت مقتضى حال يفسد النظم دونها ، وحققت الإفادة والإمتاع في آن واحد .. ولا غرو في ذلك فالرسول ﷺ لم يلجا إلى الإشارة عن ضيق عطن ولم ينفث في تواصله عن عجز ووهن ، وإنما تمكنٌ من زمام اللغة ، وخبرة بأحوال المخاطبين ومتطلبات المقام .

٣- الإيجاز : وهي سمة بارزة في إشاراته وحركاته ﷺ ، فقد حملت الإشارة في بيانه ﷺ معاني كثيرة ، ودلالات غزيرة ، إذا ما قورنت باللفظ المنطوق .. "واختصاره بإشارة اليد ، فإن المشير بيده يشير دفعة واحدة إلى أشياء لو عبر عنها بلفظ لاحتاج إلى ألفاظ كثيرة " .[1]

ولك أن تقارن بين تعبير الرسول ﷺ بالإشارة في الأمثلة الآتية وبدونها:

- " أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا » . وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى" .
- "أنا وكافل اليتيم في الجنة كما بين السبابة والوسطى من القرب والمجاورة " .
- "بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ ... "
- "بعثت أنا والساعة كما بين السبابة والوسطى من القرب " .
- " إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ أن تقول بيدك هَكَذَا ... "
- " إنما يكفيك أن تضرب بكفيك الأرض ، ثم تنفخ فيهما ، ثم تمسح بهما وجهك وكفيك ، فهذا هو التيمم " .
- " فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِه"
- " فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ قَدر حلقة بإصبعي الإبهام والسبابة" .

.... وغير ذلك كثير مما لا يخفى ولا يدق على أدنى تأمل ونظر .

٤- ومن سمات الإشارة والحركة في بيانه ﷺ أنها وسيلة تعليمية ناجعة تجمع بين تهيئة الحواس وشحذها وبين التشويق الذي يحول المتعلم بكل ما فيه إلى المعلم الحريص على تعليم أمته وتبليغ دعوته في صورة واضحة تحمل جوانب التشريع .

"ودارس الحديث النبوي الشريف يرى من ذلك الشيء الكثير الذي يدل على اهتمامه البالغ ﷺ بوسائل الإيضاح في تعليم أمته ، وشغل الحاسة مع العقل في لباقة تحول التلميذ بكل ما فيه إلى المعلم الحريص على سيطرته في درسه ، وقد يكون الفعل قبل العبارة لافتاً ومشوقاً ، فإذا

---

(١) خزانة الأدب لابن حجة الحموي ٤ / ١٥ ، ط/ دار صادر ، بيروت ط. أولى ٢٠٠١ م .

تبعه البيان ازداد الغرض تقرراً لا يسهل في العادة نسيانه ، فإذا ظن به النسيان كذبت الظن المناسبة الخفيفة التي سرعان ما تبرزه جليا كيوم تلقيه " . (١)

ومن ذلك قوله ﷺ : " أَمَّا أَنَا فَأُفِيضُ عَلَى رَأْسِي ثَلاَثاً » . وَأَشَارَ بِيَدَيْه كِلْتَيْهِمَا" ، فقد علمنا كيفية الغسل عملياً ، وذلك بإفاضة ثلاث حفنات من الماء على الجسد كل واحدة منهن بمقدار ملء الكفين معاً .

ومنه قوله ﷺ : " إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ هَكَذَا" ، فضرب النبي ﷺ بكفيه الأرض ، ونفخ فيهما ، ثم مسح بهما وجهه وكفيه " .

... فهل تجد بعد هذا وسيلة تعليمية أنجع وأقوى من التصوير بالإشارة ؟! وهل تشك في قدرتها على الحفظ والتذكر ؟ !

٥- قدرتها على حمل معاني خاصة يقصر اللفظ عن النهوض بها ، وذلك في مقام رفع الحرج عن السائل ، كما وضحنا في حديث المرأة التي عرضت نفسها على رسول الله ﷺ ليتزوجها ولم تكن به حاجة ، فما كان منه إلا أن "طأطأ رأسه " مكنياً عن رفضه وعدم حاجته إليها ، فأبلغت الإشارة خير إبلاغ دون أن توقع السائل في خجل أو تؤذي مشاعره . (٢)

وفي مقام تعليم المسلمين بعض أمور دينهم ، مثل الغسل (٣) ،والتيمم (٤)، وبيان القدر الجائز من الحرير للرجال (٥) ، وغير ذلك كثير .

٦- عالمية التواصل والإبلاغ بها : ذلك أن إشارات الرأس واليد ، وحركات العين والأصابع ، وإيماءات الجسد وغيرها من أنواع الإشارات ؛ تعد-لغة إنسانية يتفاهم بها أناس من بلاد مختلفة لا يعرف بعضهم لغة بعض ، وفي أماكن وأزمنة مختلفة .

فالرسول ﷺ أراد أن يكون بيانه عاماً مثل دعوته ورسالته ، وأراد أن يفهمها البليغ والعييُّ ، والفطن والغبي .

٧- تنوع صيغ الإشارة والحركة تبعاً للغرض ومتطلبات المقام : والمستقرئ لأنواع الإشارات في بيانه ﷺ ومواقعها يلحظ أنها تدور بين ثلاثة أمور :

الأول : الإشارة المقترنة باسم من أسماء الإشارة لبيان المراد منه ، وهذا النوع كثير في بيانه ﷺ ، ومنه :

☜ " أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا » . وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى ، " .

☜ " بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَذِهِ مِنْ هَذِهِ أَوْ كَهَاتَيْنِ » . وَقَرَنَ بَيْنَ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى " .

---

(١) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية صـ ٧٧ .
(٢) راجع البحث صـ
(٣) راجع البحث صـ
(٤)راجع البحث صـ
(٥)راجع البحث صـ

☜ " إِنَّ اللَّهَ لاَ يُعَذِّبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ ، وَلاَ بِحُزْنِ الْقَلْبِ ، وَلَكِنْ يُعَذِّبُ بِهَذَا – وَأَشَارَ إِلَى لِسَانِهِ –"

☜ " فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ » . وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا".

☜ " إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ هَكَذَا » . فَضَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ بِكَفَّيْهِ الأَرْضَ ، وَنَفَخَ فِيهِمَا ثُمَّ مَسَحَ بِهِمَا وَجْهَهُ وَكَفَّيْهِ " .

☜ " الشَّهْرُ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا . وأرسل أصابعه ثلاث مرات".

☜ " الشَّهْرُ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا، وأرسل أصابعه كلها وأمسك واحداً في الثالثة " .

الثاني : الإشارة التي تكون جزءاً من الكلام وتقوم مقام اللفظ ، وهذا النوع أقل وروداً من سابقه ،ومنه :

☜ "في الجمعة سَاعَةٌ لاَ يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ ، وَهْوَ قَائِمٌ يُصَلِّي ، يَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى شَيْئاً إِلاَّ أَعْطَاهُ إِيَّاهُ » . وَأَشَارَ بِيَدِهِ يُقَلِّلُهَا " . فالإشارة هنا قائمة مقام النعت لكلمة (ساعة) أي : ساعة قليلة .

☜ " أُمِرْتُ أَنْ أَسْجُدَ عَلَى سَبْعَةِ أَعْظُمٍ عَلَى الْجَبْهَةِ – وَأَشَارَ بِيَدِهِ عَلَى أَنْفِهِ " فالإشارة هنا جزء من الكلام وقائمة مقام لفظ" الأنف" .

☜ " اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ فَعَلُوا بِنَبِيِّهِ – وأشار إِلَى رَبَاعِيَتِهِ" . فالإشارة هنا قائمة مقام المسند المحذوف ، أي : كسروا رباعيته .

الثالث : الإشارة المجردة من الكلام ، وهي التي تقع جواباً لسؤال ، وهذا النوع أقل الثلاثة وروداً ، ومنه :

☜ " أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئِلَ فِي حَجَّتِهِ فَقَالَ ذَبَحْتُ قَبْلَ أَنْ أَرْمِيَ ، فَأَوْمَأَ بِيَدِهِ قَالَ وَلاَ حَرَجَ . قَالَ حَلَقْتُ قَبْلَ أَنْ أَذْبَحَ . فَأَوْمَأَ بِيَدِهِ وَلاَ حَرَجَ " .

☜ " قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْهَرْجُ فَقَالَ هَكَذَا بِيَدِهِ ، فَحَرَّفَهَا ، كَأَنَّهُ يُرِيدُ الْقَتْلَ".

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ

الخاتمة

بعد هذه الدراسة المباركة في بيان النبي ﷺ ـــ والتي أسأل الله أن يجعلها سبباً لنيل شفاعته ﷺ ـــ وفقني الله تعالى إلى عدة نتائج ، هذه أهمها :

أولاً : أن (الإشارة) ضرب من ضروب البيان ، ووجه من وجوه البلاغة ، يلجأ إليها البليغ لتوضيح المعاني وترسيخها في ذهن المخاطب .. وقد سلك الرسول ﷺ طريق التصوير بالإشارة والحركة في بيانه ، فكان لها أثر كبير في توضيح المعاني وتأكيدها ، وكان لها دور بارز في الإعانة على الفهم والحفظ ، لا سيما في الأمور المتصلة بالشريعة وأحكامها .

ثانياً : تعددت أنواع الإشارة في بيانه ﷺ حسب متطلبات الموقف والمقام ، فجاءت تفصح عن بلاغة رائقة ، لا تقل ـــ في دورها ودلالتها ـــ عن بلاغة اللفظ المنطوق ؛ بل ربما نهضت بما لا يقوى عليه اللفظ في بعض المقامات .

ثالثاً : اتسمت الإشارة في بيانه ﷺ بالسهولة والوضوح ، وحمل المعاني الكثيرة والدلالات الغزيرة ، والقدرة على التعليم المادي المحسوس ، وغير ذلك من السمات التي أبرزتها الدراسة .

... والدراسة بعد هذا توصي الباحثين والدارسين أن يوجهوا قلتهم نحو هذا الضرب من البيان ـــ الإشارة ـــ في الحديث النبوي ، وغيره من النصوص البليغة ، فهو ميدان خصب ، ما زال بحاجة إلى دراسات كثيرة تجلي أسراره ، وتكشف عن قيمته ومظاهر بلاغته ، مستلهمين في ذلك المنهج التحليلي الذي يستنبط الخصائص ، ويحرر الضوابط ، ويجدد الرؤى، ويوسع الآفاق ، وينفث في روع هذا العلم التطوير المستمر الذي يواكب تجدد العطاء والثراء في شتى مناحي الحياة .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم في كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علمك العظيم .

د/ صلاح أحمد رمضان .

فهرس المصادر والمراجع

١- أساس البلاغة للزمخشري ، ط/ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٧٩ م .
٢- أسرار البلاغة للإمام بعد القاهر الجرجاني ، تحقيق / محمود محمد شاكر، ط/ دار المدني بجدة ، ط. أولى ١٩٩١ م .
٣- إعجاز القرآن والبلاغة والنبوية للأستاذ : مصطفى صادق الرافعي ، تحقيق/ عبد الله المنشاوي ،ط/ مكتبة الإيمان بالمنصورة ،ط. أولى ١٩٩٧ م
٤- بلاغة الرسول للدكتور / علي العماري ، ط/ دار الأنصار بالقاهرة (بدون) .
٥- البلاغة القرآنية في التصوير بالإشارة والحركة الجسمية ، د/ عبد الله محمد هنداوي ، ط/ مطبعة الأمانة ، ط. أولى ١٩٩٥ م .
٦- البيان والتبيين للجاحظ ، تحقيق / عبد السلام هارون ، الناشر : مؤسسة الخانجي بالقاهرة (بدون) .
٧- تحرير التحبير لابن أبي الإصبع المصري ، تحقيق الدكتور / حفني شرف، ط/ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ، ١٩٩٥ م .
٨- التشويق في الحديث النبوي ، دكتور / بسيوني فيود ، ط/ مطبعة الحسين الإسلامية بالقاهرة ١٩٩٣ م .
٩- التصوير الفني في الحديث النبوي ، دكتور / محمد لطفي الصباغ ، ط/ المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط. أولى ١٩٨٨ م .
١٠- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، ط/ دار الكتب المصرية ، ط(ثانية) ١٩٥٤ م .
١١- الحديث النبوي مصطلحه بلاغته ، دكتور / لطفي الصباغ ، ط/ المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط. رابعة ١٩٨٢ م .
١٢- الحديث النبوي من الوجهة البلاغية ، دكتور / عز الدين علي السيد ، ط / دار اقرأ ط. أولى ١٩٨٤ م .
١٣- الحيوان للجاحظ ، تحقيق / عبد السلام هارون ، ط/ مصطفى الحلبي بمصر (بدون) .
١٤- خزانة الأدب لابن حجة الحموي ، شرح / عصام شعيتة ، ط/ دار مكتبة الهلال ، بيروت ، (بدون) .
١٥- سنن ابن ماجة ، تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقي ، ط/ دار إحياء التراث العربي ، بيروت (بدون) .

١٦- شروح التلخيص ، ط/ دار الكتب العلمية ، بيروت ، (بدون) .

١٧- صحيح البخاري ، تحقيق الدكتور / مصطفى الذهبي ، ط/ دار الحديث بالقاهرة ، ط. أولى ٢٠٠٠ م .

١٨- عمدة القارئ للإمام العيني ، ط/ دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، (بدون) .

١٩- العبارة والإشارة ، دكتور / محمد العبد ، ط/ دار الفكر العربي بالقاهرة ١٩٩٥ م .

٢٠ - العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق القيرواني ، تحقيق/ محمد محي الدين عبد الحميد ، ط/ دار الجيل ، بيروت (بدون) .

٢١- فتح الباري لابن حجر العسقلاني ، تحقيق / محب الدين الخطيب ، ط/ دار الريان للتراث ، ط. ثالثة ١٩٩٧ م .

٢٢- القاموس المحيط للفيروزآبادي ، ط/ دار الفكر ، بيروت ، ١٩٧٨ م .

٢٣- كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي ، تحقيق د/ مهدي المخزومي ، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـــ بيروت ـــ ط. أولى ١٩٨٨ م.

٢٤- كشف المشكل لابن الجوزي ، تحقيق الدكتور / مصطفى الذهبي ، ط/ دار الحديث بالقاهرة ، ط. أولى ٢٠٠٠ م .

٢٥- لسان العرب لابن منظور ، ط/ دار إحياء التراث العربي ـــ بيروت ـــ ط. ثانية ١٩٩٧ م .

٢٦- مجمل اللغة لابن فارس ، تحقيق / زهير عبد المحسن سلطان ، ط/ مؤسسة الرسالة ـــ بيروت ـــ ط. ثانية ١٩٨٦ م .

٢٧- نقد الشعر لقدامة بن جعفر ، تحقيق الدكتور / محمد عبد المنعم خفاجي ، ط/ دار الكتب العلمية ـــ بيروت ـــ بدون .

٢٨- النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ، تحقيق / طه أحمد الزاوي وآخرون ، ط/ المكتبة العلمية ـــ بيروت ـــ بدون .

٢٩ - وحي الرسالة للأستاذ / أحمد حسن الزيات ، ط/ دار الثقافة ، بيروت، ط. العاشرة ١٩٨٥ م .